الفصل الأول

نهضة عصر الاسكندر

تفكك إمبراطورية الإسكندر

ثم تدهور بلاد اليونان وسقوطها بوقوع الغزو المقدونى . إذ وضعت وقعة خيرونيا التى انتصر فيها فيليب الثانى فى أغسطس سنة ٣٣٨ حداً لاستقلالها، وبعد ذلك بعامين . مات فيليب الثانى قتيلا واعتلى العرش مكانه ابنه الإسكندر الثالث . الذى فتح جزءاً كبيراً من العالم المعروف مدة اثنى عشر عاماً من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٣٢٣ ؛ حين مات وهو فى شرخ الشباب ؛ إذ لم يتجاوز الثالثة والثلاثين ربيعاً . وكان لوفاة الإسكندر صدى عميق . ففتوحاته وضعت نهاية للعصر الهلينى القديم . ولكنها بدأت عصراً جديداً فى التاريخ ، وهى ما تسمى باسم العصر الهلنستى الذى استمر ثلاثة قرون من حوالى سنة ٣٣٠ ق.م. إلى أن أسس أغسطس قيصر الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٠ ق.م.

بعبارة أخرى ختم الإسكندر الأكبر عصراً وفتح عصراً آخر جديداً ؛ إذ كانت إمبراطوريته التى أنشأها عالمية ، تضم تحت حكم المقدونيين شعوباً كثيرة تختلف فى الجنس واللون واللغة والدين ، ولكن ثقافتها العليا ولغتها كانت يونانية. ولما كانت جيوش الإسكندر مقدونية ويونانية ، فإنه حمل معه الثقافة اليونانية إلى قلب آسيا ، وقيل إنه صبغ غرب آسيا بالصبغة الهللينية ،[1] على أن هذه العبارة ينبغى تحديدها من نواح عديدة ؛ لأن غرب آسيا لم ينصبغ بالصبغة الهللينية قبل الإسكندر فحسب ، بل إن حافتها الغربية كانت مهد العلوم اليونانية . ثم إن أحلام الإسكندر لم تقتصر على تكوين إمبراطورية عالمية ، بل امتدت هذه الأحلام إلى ضرب من الوحدة أعمق من ذلك ، وهى وحدة الفكر . وقبل الرواقيين والمسيحيين بزمن طويل كان الإسكندر أول رجل فكر

فى الإخاء بين بنى البشر ، [٢] وهو من أجل ذلك جدير بأن يكون اسمه الخالد الإسكندر الأكبر . ولما لم يكن الإسكندر نفسه من أصل يونانى نقىّ ، بل أجنبى هللينى ، كان من الأيسر عليه أن يدرك فكرة مثل تلك الأخوة ومزج الأجناس التى تنطوى عليها مما كان على أفلاطون مثلا . وفى سنة ٣٢٧ ضرب الإسكندر المثل على ذلك كله بزواجه من الأميرة روكسانا [٣] الباكتيرية . وبعد ذلك بسنتين ، خص الإسكندر بمدينة سوسة ثمانين من قواده بزوجات آسيويات أغدق عليهن البائنات الوفيرة . واتخذ الإسكندر من بارسينه زوجة ثانية ، وهى كبرى بنات دارا الثالث ، آخر ملوك فارس . ولعله تزوج من ثالثة هى باريستيس ابنة أرتاجزرسيس الثالث أوخوس . وبعد وفاة الإسكندر بقليل ، قتلت روكسانا ضرتها بارسينه .

أما فيما يتعلق بالجنود اليونانيين ، وتابعى المعسكرات ، والمستوطنين من كل جنس ، فلم يكونوا فى حاجة للاقتناع باتخاذ فتيات وطنيات زوجات أو محظيات . على أنه يجب على الباحث ألا يبالغ فى أهمية هذه الزيجات المختلطة ، لأنه مهما يكن عددها كبيراً فهى لا يمكن أن تترك أثرها إلا فى جزء قليل من السكان . ثم إنه لم يوجد من اليونانيين فى أى وقت من الأوقات ما يكفى لصبغ مصر وآسيا الصغرى بالصبغة الهللينية بعد الإسكندر ، مع العلم بأن بلاد اليونان فقدت نسبة كبيرة من أشد مواطنيها طموحاً وإقداماً بالانتقال إلى تلك البلاد ، لأنه على الرغم من التفوق الثقافى اليونانى لم يستطع أولئك اليونانيون سوى أن ينغمروا فى بحار المجتمع المصرى والآسيوى ، ولم يكن بوسعهم مقاومة تيار الثقافة المحلية ، وكان صبغهم بالصبغة الشرقية هو النتيجة الحتمية . وكان تأثير الزوجات والأمهات الآسيويات شاملا فى ميادين معينة مثل المعتقدات الموروثة والدين . ولذلك يستطيع الباحث أن يذهب إلى حد القول بأن إمبراطورية الإسكندر ساعدت على صبغ شرق أوربا بالصبغة المصرية والآسيوية وبدلا من القول بصبغ آسيا بالصبغة الهللينية أو بصبغ أوربا بالصبغة المصرية الآسيوية ، فمن الأسلم أن نقول إن الشرق والغرب تلاقيا ولم يفترقا بعضهما عن بعض أبداً فى تلك المنطقة —

جنوب شرق أوربا ، وشمال شرق أفريقية ، وغرب آسيا .

مات الإسكندر وهو شاب فى الثالثة والثلاثين ، ولم يترك وريثاً سوى طفل ولد بعد وفاته ، ولم تتخذ أى ترتيبات لاستمرار الحكم ؛ إذ تكونت الإمبراطورية التى أنشأها من عناصر مختلفة كانت من الضخامة بحيث لا يستبعد أن الإسكندر نفسه لم يكن فى مقدوره أن يحافظ على وحدة تلك الإمبراطورية ، غير أن الحظ كان حليفه بموته قبل تفككها . وعندما كان الإسكندر يلفظ أنفاسه الأخيرة أعطى خاتمه إلى قائد من قادته هو بيرديكاس المقدونى ابن أورنتيز ، ولكن لم تلبث المنافسة العنيفة بين الآخرين أن خلقت حالا من الفوضى ، وشهدت نهاية القرن الرابع وبداية الثالث (حوالى ٣٢٣ — ٢٧٥) سلسلة من الحروب التى تعرف باسم حروب خلفاء الإسكندر ، وتفاصيلها بالغة معقدة ؛ وهى لاتهم قراءنا .

وإذا تركنا الولايات الشرقية التى تقع شرق الخليج الفارسى وجنوب غربى نهر أوكسوس (جيحون) ، يتضح أن الإمبراطورية انقسمت إلى ثلاثة أقسام، وهى : مقدونيا وبلاد اليونان تحت حكم الأنتيجونيين ، وغرب آسيا تحت حكم السلوكيين . ومصر تحت حكم البطالمة . وبعد أن تحولت تلك الأقسام الثلاثة إلى ممالك (حوالى ٢٧٥) استمرت العلاقات بينها طافحة بمراحل من التنافس تعقبها مراحل من التحالف أو العداء ، وتزداد صعوبة أى وصف لضروب الغيرة والصدام والحروب التى وقعت بين تلك الممالك بسبب ما تخللها من انقسامات داخلية أو ثورات خاصة لكل مملكة من تلك الممالك ، أو بسبب الدسائس التى بدأ الرومان فى تدبيرها منذ سنة ٢١٢ . واستغل الرومان كل خلاف بين تلك الممالك باعتباره كسباً لامبرياليتهم . مثال ذلك أنه عندما وسع الأتاليون ملوك برجامه ، رقعة أملاكهم على حساب مملكة السلوكيين ، كانت روما على استعداد لمعاونتهم (سنة ٢١٢ وبعدها) ، ودبرت شئونها على أن تكون وريثهم سنة ١٣٠ ق . م .

وتطور كل من هذه الممالك الثلاث أو الأربع كل على طريقته وتبعاً

لأحواله الجغرافية والأنثروبولوجية ، وستتاح لنا مناسبات فيما يلى للإشارة إلى واحدة أو أخرى من تلك الممالك على أننا سنقصر اهتمامنا فى هذا الفصل على مملكة البطالمة فى مصر .

وعندما يتكلم الباحث عن العصر الهلنستى فإنه يعنى الثقافة الهللينية التى انتشرت فى الأقطار الواسعة التى تكونت منها إمبراطورية الإسكندر من بقة (فرناقة) غرباً حتى نهر السند شرقاً . ومن المصطلح عليه أن العصر الهلنستى يمتد حتى زمن المسيح تقريباً ، وأن الحكم الرومانى أخذ يحل محل الحكم الهلنستى تدريجياً من بداية التاريخ المسيحى . وفيما يتعلق بتاريخ العلوم فإن العصر الرومانى ظل يونانياً إلى حد بعيد ؛ ولكنه لم يعد يسمى باسم الهلنستى ، بل الرومانى ثم البيزنطى فيما بعد سنة ٣٢٥ .

حقاً إن عالمية اللغة اليونانية (باعتبارها الوسيلة الثقافية العليا) كانت ظاهرة عالم الإسكندر كله ، لا فى العصر الهلنستى فحسب ، بل العصر الرومانى أيضاً ، وعلى الأقل فى المناطق الشرقية التى كانت تتمتع بأكبر قسط من الثقافة .

التأثيرات الإيرانية والهندية فى الممالك الهلنستية

سنكرس معظم عنايتنا إلى الثقافة التى ازدهرت فى مصر ، وقبل أن نبدأ ذلك ينبغى أن نصر على شرح التأثيرات الشرقية التى قامت بدورها فى الممالك الهلنستية ، لأن القارئ تعود قراءة عبارة « صبغ الشرق بالصبغة الهللينية » بدون أن يكون على دراية كافية برد الفعل الشرقى . أما التأثيرات اليهودية التى سيكون تسليم القارئ بها أكثر سهولة ، فسنترك الكلام عنها الآن .

ولنسلم أيضاً بضروب التأثير المحلية ، وهى التأثيرات الفرعونية فى مصر ، والتأثيرات البابلية فى المملكة السلوكية ؛ إذ أن الثقافات القديمة ظلت حية ، وذات روعة وتأثير . وكان من الضرورات السياسية للبطالمة أن يوجهوا انتباههم إلى الديانة المصرية القديمة . كما كانت سياسة السلوكيين قائمة على احترام المعارف والطقوس الدينية البابلية وإحيائها . وكانت أوجه الاختلاف بين مملكة

البطالمة ومملكة السلوكيين ترجع إلى صفات طبيعية وعوامل اقتصادية ، كما ترجع إلى اختلافات واضحة كل الوضوح فى ماضى تاريخهما وديانتهما ومعتقداتهما الموروثة .

وكان طبيعيًا أن تكون التأثيرات الإيرانية كبيرة ، لأن المستعمرين اليونانيين فى آسيا ورعايا ملوك الفرس تبادلوا علاقات كثيرة متنوعة ، ومنها ما هو طيب ، ومنها ما هو سيئ ، ولابد أن التجار الفارسيين كانوا منتشرين بكثرة فى ميليتوس اليونانية وفى مدن أخرى من مدن الاتحاد الأيونى . وفى الغرب حتى سيراكوز استقبل الملك جيلون (ت ٤٧٨)أحد الحكماء الفرس[٤] الذى ادعى أنه أبحر حول أفريقية كما فعل الفينيقيون أيام الملك نخاو وفيما بعد أيام الملك دارا العظيم[٥]. وشرح كتسياس الكنيدى (آخر القرن الخامس ق.م.) الثقافة الإيرانية فى كتابه عن تاريخ الفرس ، ثم ألم يقرأ كل يونانى متعلم تاريخ حياة الملك الفارسى قورش وهو الكتاب الذى ألفه كسينوفون (٤ — ١ ق. م.) ؟ وهذا الكتاب قصة سياسية ، ولكن أحداً لم يكن ليستطيع قراءته ما لم يكن على علم بفارس ، وبأن هناك النبلاء الطيبين من الفرس ، ومنهم الأشرار كذلك .

وكانت بابل ولاية فارسية من سنة ٥٣٨ ، ومصر ولاية فارسية أخرى من سنة ٥٢٥ إلى فتح الإسكندر لها فى سنة ٣٣٢ ، وخلال هذين القرنين نبتت جذور كثير من النظم والعادات والأفكار والألفاظ الفارسية . ولو كانت معرفتنا بالمصادر الإيرانية أحسن مما هى عليه الآن، لكان من المحتمل أن نرجع بكثير من مظاهر الثقافة اليونانية إلى تلك الجذور ، وعلى سبيل المثال ، من الجائز أن نظرية العناصر نشأت فى فارس ثم انتشرت منها إلى العالم اليونانى وإلى الهند والصين .[٦] على أن هذا تصوير خيال ، أما حقيقة الاتصالات بين الممالك الهلنستية وإيران ، فما من شك فى أنها كانت عديدة[٧] .

* * *

وكانت العلاقات اليونانية الهندية أكثر تعقيداً من العلاقات اليونانية الإيرانية . وتبدأ تلك العلاقات بنفس الوسيلة عن طريق المستعمرات الأيونية وخاصة مدينة ميليتوس وأسواقها ، فلم يعرف التجار الهنود عائقاً للوصول إلى تلك الأسواق الغنية . كما استطاع الوسطاء أن يحملوا البضائع والآراء الهندية أيضاً إلى هناك . وقام هنود آخرون بزيارة بلاد اليونان لعرض حكمتهم على اليونانيين ، أو لتلقى الحكمة عنهم وسبق لنا ذكر[٨] القصة الطريفة التى تشرح مقابلة سقراط لأحد حكماء الهنود . وكانت أقدم الروايات عن الهند هى التى كتبها هيرودوت (القرن الخامس ق . م) الذى سجل عن الهنود أنهم يزرعون القطن وينسجونه ، وهذه فضلا عن روايات كتسياس الكنيدى فى كتابه عن الهند[٩] . أما اتصالات هيبوكراتيس بالإيرانيين فيشوبها الشك . ولو أنها لم تكن صعبة فى منطقة جزيرة كوس أو بحر إيجه . أما أوجه الشبه بين بحث هيبوكراتيس فى تأثير البيئة على الإنسان المسمى « عن الهواء » والطب الهندى فتعزى فى الغالب إلى تقارب المصادفة[١٠] .

كانت كل هذه الاتصالات اليونانية الهندية نادرة ومحدودة المدى . غير أنه لما قام الإسكندر بفتوحاته فى آسيا ، حدثت اتصالات على نطاق واسع ؛ إذ وصل الإسكندر إلى نهر السند ، وفيما تلا ذلك من قرون غزا اليونانيون الجزء الشمالى من الهند (إلى خط عرض ٢٢ درجة شمالا تقريباً) وأسسوا ممالك ومستعمرات فى أماكن متعددة[١١] . وكان اتصال الإسكندر بالحكماء الهنود موضوع حولية خيالية تسمى « محادثات الإسكندر مع الفلاسفة الهنود العشرة » وظهرت هذه الحولية فى صور عديدة فى العصور القديمة[١٢] .

وخلال الاضطرابات التى وقعت عقب وفاة الإسكندر . استطاع مغامر هندى رأى الإسكندر فى شبابه واسمه شاندرا جوتا (ساندرو كوتوس باللغة اليونانية) أن يسيطر على جزء كبير فى شمال الهند ، وأن يكوّن الإمبراطورية الموريه التى استمرت من أيام اعتلائه العرش سنة ٣٢٢ (أو قبل ذلك) إلى سنة ١٨٥ ميلادية ، وأقام هذا المغامر عاصمة إمبراطوريته فى باتا ليبوترا[١٣] .

وتأثرت الثقافة المورية العالية بالثقافة الإيرانية ، ومن ثم يحتمل أن التأثيرات الإيرانية انتقلت غرباً عن طريق شمال الهند . كما انتقلت من الأراضى الإيرانية . ثم إن الملك سليوكس نيفاتور (ملك سوريا من سنة ٣١٢ إلى سنة ٢٨٠) غزا أراضى شاندرا جوتا سنة ٣٠٥ ولكنه اضطر إلى الانسحاب . وفى سنوات السلام التى تلت ذلك ، تنازل سليوكس للإمبراطور شاندرا جوتا عن البنجاب وجبال هندوكوش ، ولكنه تسلم فى مقابل ذلك خمسمائة فيل من أفيال الحرب . وفى سنة ٣٠٢ أرسل الملك سليوكس الكاتب ميجاسثنيس سفيراً إلى باتاليبوترا . ونشر هذا الكاتب نتائج رحلته « مشاهدات هندية » وهذا الكتاب للأسف فُقد ولا نملك منه سوى بضع مقتطفات نستطيع أن نحكم منها على أن الكتاب كان يحتوى على قدر كبير من المعلومات عن شمال الهند . وكثير من قصص هذا الكتاب صعبة التصديق ، ولذلك خسر ميجاسثنيس ثقة المؤرخين الذين جاءوا بعده مثل بولبيوس وسترابون وكان مصيره مصير هيرودوت وماركوبولو . ولو بقى المتن الكامل لهذا الكتاب لوجدنا أن ميجاسثنيس كان على حق فى كثير من المناسبات كما كان هيرودوت وماركوبولو .

وعلى أية حال توافرت لأهل العصر الهلنستى وسيلة لمعرفة الكثير عن تلك البلاد اليونانية الغامضة . ومع أن معرفتهم كانت ناقصة وفى بعض الأحيان خاطئة ، فإنها كانت غير قليلة .

ومن الهنود الذين جاءوا إلى مصر كان بعضهم تجاراً أو رحالة ، والبعض الآخر مبشرين بالديانة البوذية . وبخاصة فى أثناء حكم أسوكا ملك ماوديا ، الذى امتد سلطانه فى جزء كبير من شبه الجزيرة الهندية (فوق خط عرض ١٥ درجة شمالا) من سنة ٢٧٣ إلى ٢٣٢ . وكان أسوكا على اتصال ببطلميوس فيلاديلفوس ملك مصر ، وانطيوكس الثانى ملك سوريا ، وإنتيجونوس ملك مقدونيا . ومن الناحية الأخرى ، بعث بطلميوس فيلادلفوس رسولا إلى الهند لكى يحصل على فيلة ومدربين لها ، فالقرن الثالث كان عصر السفن الحربية الضخمة فى البحر ، وحرب الفيلة على الأرض . وطبعاً كان الملوك السلوكيون أغنى

فى عدد الأفيال لأنهم أقرب إلى الهند من غيرهم . غير أن خصومهم ، ملوك البطالمة ، بذلوا كل جهد للحصول على عدد أوفر من الأفيال ، لا من الهند فحسب ، بل أفريقية أيضاً . واستخدم البطالمة النوعين فى الحرب ، وكانت الموقعة الأولى بين الأفيال الهندية والأفريقية هى موقعة رفح[١٤] سنة ٢١٧ ، ولتفوق الأفيال الهندية فى العدد انهزمت الأفيال الإفريقية . وتشير التجارة فى الأفيال إلى أنه كان هناك تبادل تجارى أيسر فى أنواع أخرى من السلع ، كما تشير إلى وجود تبادل ثقافى .

وكان مناندروس أشهر الملوك اليونانيين فى الهند . وليس لنا به معرفة جيدة ، والقليل الذى نعرفه عنه يصعب علينا التفرقة فيه بين الحقيقة والخيال . كان مناندروس ملك كابول والبنجاب . وحكم الهند اليونانية إلى كاثياوار (جوجرات الغربية على الساحل الغربى عند خط عرض ٢٢ درجة شمالا تقريباً) حتى وفاته ، أى من حوالى سنة ١٥٠ إلى سنة ١٤٣ . على أنه كان معروفاً معرفة جيدة لرعيته من الهنود باسم ميليندا حتى إنه أصبح بطل رسالة بوذية تسمى ميليندا . وهى تشتمل على « أسئلة ميليندا ». وليس من المؤكد أنه كان بوذياً ولكنه كان على شاكلة ملوك العصر الهلنستى صديقاً متسامحاً نحو ديانات رعيته . ويلاحظ أن كتاب ميليندا هو الكتاب الهندى الوحيد الذى تناول ملكاً من ملوك اليونان فى الهند[١٥] ومن المحتمل أنه كتب فى بداية العصر الميلادى وهو محفوظ باللغتين البالية والصينية (انظر ما يلى) .

وخضعت العلاقات التجارية والثقافية بين مصر والهند لتقلبات الأحوال بسبب عداوة المملكة السلوكية لمصر ، غير أنه عندما أغلقت الطرق السلوكية فى وجه التجارة المصرية استطاعت مصر أن تتصل بالهند عن طريق البحر الأحمر وجزيرة العرب . ولم تكن الرحلة البحرية إلى الهند عبر باب المندب والبحر العربى سهلة أو سليمة العواقب قبل اكتشاف الرياح الموسمية . وليس بعيداً أن البحارة غير اليونانيين عرفوا تلك الرياح منذ مدة طويلة . ولكن معرفتهم هذه لم تصبح فى متناول يد اليونانيين حتى عصر هيبالوس (حوالى ٧٠ ق.م)[١٦] .

وانتهت السيادة اليونانية نهائيًّا فى الهند قبل بداية العصر الميلادى ، لكن التجارة استمرت بطرق متعددة . وأفضل سبيل للتدليل على أهمية تلك التجارة فى نهاية العصر الهلنسى أن نتذكر اقتراح كليوباترا بترك البحر المتوسط والسيطرة على البحار الهندية ، وأشار تارن إلى هذه العبارة بقوله : « إن كليوباترا لم تكن تتحدث حديث خرافة ، فلو أنها نفذت اقتراحها ، لسبقت ألبوكرك »[١٧]. وكان خلفاء الإسكندر الوحيدون الذين اشتهروا شهرة أسطورية هما مناندروس وكليوباترا واستحق كل منهما شهرته الفائقة .

كتاب ميليندا پانها الهندى

هذا الكتاب حوار بين الملك ميليندا والراهب ناجا سينا ، حيث يسأل الملك فيه كثيراً من الأسئلة تتناول نقطاً متعددة تتعلق بالمذهب البوذى ويلاحظ أن متن الميليندا الكامل كما هو موجود بلغة البالى طويل جدًّا ؛ ولكن الأصل القديم — الذى يتكون من مقدمة وثلاثة كتب أقصر بكثير [١٨]. وكتب هذا الأصل القديم خلال القرون الأولى من العصر الميلادى. ومن المحقق أنه كتب قبل القرن الخامس ؛ وذلك لأنه توجد نسختان منه فى رواية التريباتاكا الصينية[١٩] ، وهاتان الترجمتان الصينيتان أعدتا خلال حكم أسرة تشن الشرقية (٣١٧ — ٤٢٠) . لامن النص البالى الذى نملكه . بل من نص براكريت الذى يحتمل أن يكون أقدم من السابق .

ووقع ذلك الحوار فى مدينة ساجالا ، عاصمة الملك ميليندا فى البنجاب ، وبحضور عدد من اليونانيين وليس من شك أن ميليندا هو مناندروس ، وربما يجد الباحث فى هذا الكتاب عدداً من الإشارات اليونانية الأخرى (أو كلمات مشتقة من اليونانية)[٢٠] . ولعل بداية الحوار أكثر حيوية أو بعبارة أخرى أقل مغالاة ومبالغة من كتابات هندية أخرى . ومع ذلك ، فإن كتاب ميليندا پانها بوذى هندى ولا ريب ، وهو ليس جزءاً من القانون البوذى الدينى ، ولكنه قطعة رائعة من الأدب البوذى ، وتمد قراءتها الباحث بقسط وافر من المعرفة . والكتاب

يختلف بكل معنى الكلمة عن الكتابات اليونانية فى القرون الأولى من العصر الميلادى . على أن مقارنة الكتابات البوذية بالكتابات المسيحية الدينية التى كتبت فى نفس العصر تقريباً — مثل كتابات الآباء المسيحيين الأولين — تكون مقارنة غير عادلة لأنها تكشف لنا عن فروق عميقة الغور .

ولم يكن مؤلف كتاب الميليندابانها على معرفة باللغة اليونانية أو آدابها ، وبقى كتابه مجهولا تماماً فى الغرب حتى العصور الحديثة ، على حين اشتهر فى العالم البوذى شهرة عظيمة ، ومن الدليل على ذلك عدد النصوص التى سبق ذكرها المكتوبة بالبراكرتية والبالية والصينية والترجمات باللغات السنغالية والبورمية والكورية والأنامية .

ونشر فيلهلم ترنكنر (لندن ١٨٨٠)المتن البالى من كتاب ميليندابانها . كما نشر بول ديميفيل النسختين الصينيتين فى « مجلة المدرسة الفرنسية بالشرق الأقصى ، العدد ٢٤ ص ١ — ٢٥٨ سنة ١٩٢٤ » .

ونشر الترجمة الإنجليزية للمتن البالى ت . و . ريس داڤيدز فى المجموعة التى عنوانها « الكتب المقدسة لدى الشرق (١٨٩٠ ، ١٨٩٤)الجزءان ٣٥ و ٣٦ » وأعد لويس فينو ترجمة فرنسية للجزء القديم من المتن البالى وطبعت هذه الترجمة فى باريس سنة ١٩٢٣ .

وتتناول جميع المؤلفات فى تاريخ الأدب الهندى كتاب الميليندابانها ، فانظر مثلا كتاب موريتس فينترنتس « تاريخ الأدب الهندى » المطبوع فى ليبتزج سنة ١٩٢٠ الجزء الثانى ص ١٣٩ — ١٤٦ . وانظر كذلك ترجمته الإنجليزية طبعة كالكتا سنة ١٩٣٣ الجزء الثانى .

بعض الملاحظات التمهيدية عن تبادل الآراء العلمية

تتعلق أنواع التبادل التى تكلمنا عنها بالأدب ، وربما يتساءل القارئ عما إذا كانت هناك أنواع أخرى من التبادل المتعلق بالآراء العلمية . وينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن المعتقدات الدينية ، أو الأفكار الخيالية الأدبية ،

أو البواعث الفنية أسرع فى انتشارها من العلوم وبخاصة العلوم المجردة . وربما تكون هناك حاجة عامة شديدة للمعرفة ، ولكن هذه الحاجة تشبع بسهولة بالمعرفة الخاطئة أكثر مما تشبع بالحقيقة ، فاستطاعت الخرافات ، كعلم التنجيم مثلا أن تنتشر بين القريب والبعيد ، على حين لم تستطع العلوم شيئاً من ذلك ، وسوف نرى بعض حقائق غريبة فى الفصول التالية هنا .

وإذ سبق للعقول اليونانية أن استوعبت أحسن ما قدمته مصر وبابل للعالم من معرفة ، لم يستطع اليونان أن يضيفوا إلى ذلك شيئاً يذكر فى القرون السابقة على التاريخ الميلادى . ومع أن المعارف الفلكية التى ظهرت خلال حكم السلوكيين فى بلاد ما بين النهرين تضمنت الكثير من المعلومات الجديدة ، فإن هذه المعلومات لم تنتقل غرباً إلى بلاد اليونان ، ولذا بقيت نظريات السلوقيين عن القمر والكواكب مجهولة جهلا تاماً فى أوربا حتى إنها لم تؤثر فى أى تقدم فلكى هناك . واشتملت ألواح مسمارية لم يتم حل رموزها إلا حديثاً على تلك المعارف السلوكية المدهشة (سنة ١٨٨١ وما بعدها)[٢١] . على أن هيبارخوس (النصف الثانى من القرن الثانى ق . م .) استخدم بعض هذه المشاهدات الفلكية البابلية التى سوف نتناولها هنا فيما يلى .

وفيما يتعلق بالنظريات الرياضية التى عرفت فى الشرق القديم — ولم تكن أضيفت بعد إلى حصيلة علوم اليونان — وصلت هذه النظريات إلى اليونان عن طريق مصر ، ولكن كان ذلك بعد ظهور المسيحية . وكان ذلك عن طريق كتابات اثنين من الإسكندرية هما هيرون[٢٢] وديوفانتوس (النصف الثانى من القرن الثالث) .

ثم ماذا نقول هنا عن انتقال الأفكار العلمية فى الاتجاه الآخر ؟ كان هذا فى أضيق الحدود . فجنود مقدونيا واليونان الذين غزوا الشرق انحصر اهتمامهم فى الحرب والإدارة ، وفى المكايد السياسية والاستقلال الاقتصادى المحلى أكثر مما انحصر فى العلوم . غير أنه من المؤكد أنهم أدخلوا تحسينات على ما يسميه العلماء الألمان علوم فن الحرب ، ومن المحتمل أنهم أدخلوا تحسينات فنية كذلك على الفنون والصناعات الأخرى ، ولابد أن أطباء يونانيين صاحبوا أولئك الجند

وغيرهم من اليونانيين الذين ذهبوا إلى الشرق بقصد الاستيطان . وسوف يأتي ذكر بعضهم في فصول أخرى من هذه الدراسة . وهناك استثناء جدير بالملاحظة هو الفلكي سليوكس (النصف الأول من القرن الثاني ق . م)، هو الذي قام بشرح آراء أريستارخوس الفلكية في بابل .

وفي الشرق عاش أعلام من رجال العلوم الذين حافظوا على التقاليد اليونانية ولكنهم ينتمون في الغالب إلى عصر ما بعد المسيحية ؛ وذلك لأن موجات الفكر العلمي الرئيسية اندفعت شرقاً بسبب التعصب المسيحي . ولذا لم يظهر علم الفلك اليوناني في الهند إلا في وقت متأخر جداً . وكان السبب الرئيسي في تأخر بدايته أنه جاء بعد بطلميوس (النصف الأول من القرن الثاني) ولم ينشر باللغة السنسكريتية حتى أيام ظهور بحوث سيدهانتا (النصف الأول من القرن الخامس أو نحو ذلك) .

شكل ٢ — أمون رع ، إله الشمس ، هذا الشكل جزء من نقش على الجرانيت يرجع إلى أيام بطلميوس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ — ٢٤٧) . ومن المحتمل أن هذا الجزء مأخوذ من معبد إيزيس في بهبيت الحجارة في وسط الدلتا وهو موجود الآن في متحف الفنون بمدينة بوسطن .

وفي هذا الشكل لا تظهر الريشتان الطويلتان فوق تاج الإله ؛ وهما الريشتان اللتان تساعدان على معرفته . ويوضح النقش على الصدر مذبحاً صغيراً ، ومعناه هنا الحماية الإلهية . ويرى الإله ممسكاً برمز الحياة في يده اليسرى ، ومن المحتمل أن الإله كان ممسكاً في يده اليمنى بصولجان الحكم الذي يعني « السيادة » . انظر :

(Bernard V. Bothmer in Bulletin of the Boston Museum of Fine Arts. 51, 1-5, 1953).

ومجمل القول ، أن المهاجرين اليونانيين كانوا قلة قليلة[٢٣] فى عصور ما قبل المسيحية ولم يكن اهتمامهم بالعلوم والدراسات اهتماماً كبيراً حتى يمكن أن يؤثر فى العقول الشرقية أو يغيّرها ، ومن الناحية الأخرى لم يشعر الآسيويون أنهم بحاجة إلى الفكر اليونانى (وماذا كانت حاجتهم إلى الفكر اليونانى ؟) إذ رفضوا ذلك رفضاً فطرياً ، أو اقتصر منه على ضروب من السلوك والعادات السطحية . ولم يتشربوا يوماً من الأيام شيئاً من الجوهر والروح الذى يهدى إلى المعرفة . والواقع أن قصور الآسيويين الذاتى لاحدود له . وكما يقول طارن : « إن آسيا عرفت أنها تستطيع أن تفوق اليونانيين فى شئون الروح ، وهذا ما حدث بالفعل »[٢٤].

مصر البطلمية

عقب وفاة الإسكندر ، أصبح بطلميوس[٢٥] المقدونى بن لاجوس والياً على مصر . وكان بطلميوس هذا صديقاً للإسكندر منذ الطفولة ، وربما كان أخاً غير شقيق له[٢٦].

شكل ٣ – صورة بطلميوس الأول سوتر (والياً من سنة ٣٢٣ ثم ملكاً من سنة ٣٠٥ إلى سنة ٢٨٥) وهو يقدم القرابين إلى هاتور ، إلهة البهجة والحب ، التى تقابل أفروديت عند اليونان . والصورة تبين الملك (على اليمين) ، ونعرف أنه الملك من الشعار الملكى وهو الحية التى على جبينه ، ومن الخرطوشة الموجودة خلفه فضلا عن النقوش المرسومة داخلها عرفنا ألقابه التى تسبق اسمه ، وهى « الملك الذى اصطفاه رع ، وحبيب آمون » ، على حين كتب الاسم «بطلميوس » فى الناحية الأخرى

وكان النقش الغائر موجوداً فى الأصل فى بلدة طرانة بالقرب من كفر داود فى غرب الدلتا ، وهو موجود الآن فى متحف بوسطن للفنون الجميلة .

واشترك بطلميوس فى الحملات التى قام بها الإسكندر على آسيا . وكان أحد كبار قادته وأعز أصدقائه . واستطاع بطلميوس بفضل ذلك أن يكتب مذكراته الخاصة — التى فقدت الآن — والتى كانت أثمن مصدر رجع إليه إريانوس فى كتابة تاريخه عن حملة الإسكندر الأكبر . ومد بطلميوس أطراف ولايته بغزو فلسطين وجنوب سوريا حوالى ٣٢٠ ق . م ، وباستيلائه بعد ذلك على ساحل جنوب غربى الأناضول وعلى جزيرة كوس . واتخذ بطلميوس لقب الملكية سنة ٣٠٦ ، وحذا حذوه القادة الآخرون فى نفس الوقت تقريباً ولنفس السبب . وكان بطلميوس مؤسس أسرة البطالمة ، وهى الأسرة التى قامت على تنظيم مصر البطلمية ، وكان بطلميوس جنديًّا وإداريًّا قديراً ، وهو السبب فيما تمتعت به مصر من رخاء وماتمتعت به الإسكندرية من نهضة ، وامتد حكمه حتى سنة ٢٨٥ ، وتسمى باسم بطلميوس سوتر أى المنقذ .

ورزق بطلميوس بولد من برينيكا ، آخر زوجاته وأكثرهن محبة إلى قلبه ، واسمه بطلميوس فيلادلفوس ، وكان مولده فى جزيرة كوس . وهو الذى خلف أباه على العرش سنة ٢٨٥ واستمر فى الملك حتى سنة ٢٤٧ . ثم إن فيلادلفوس اقتفى أثر والده فى بذل الجهود والعناية الفائقة بالنهضة العلمية حتى إنه يصعب الفصل بين جهود كل منهما ، وبعبارة أخرى حقق بطلميوس الثانى جميع ما بدأه بطلميوس الأول ، ووسع بطلميوس فيلادلفوس ممتلكاته وقوى سلطته وقام بزيارات كثيرة لتعرف الأحوال فى مصر العليا ، كما وسع العلاقات مع الحبشة والبلاد التى تجاور البحر الأحمر ، وبلاد العرب ، وحتى الهند .

وكان ثالث الملوك البطالمة هو بطلميوس يوئرجيتيس (الخير) ، وهو الذى حكم من سنة ٢٤٧ إلى سنة ٢٢٢ والذى بلغت الأسرة البطلمية على يديه أوج قوتها ؛ إذ غزا بلاد ما بين النهرين ، وبابل ، وسوسيانا ، وأحضر معه إلى مصر كمية هائلة من الغنائم ومن بينها تماثيل للإلهة المصرية التى أخذها من مصر قمبيز الثانى ملك الفرس (٥٢٩ — ٥٢٢) . ثم بدأ تدهور الأسرة البطلمية على يد بطلميوس فيلوپاتر الذى تولى الملك من سنة ٢٢٢ إلى سنة ٢٠٥ . ولسنا بحاجة إلى

ذكر ملوك البطالمة المتأخرين ، ويكفى أن نعرف أن ملوك البطالمة كانوا خمسة عشر ملكاً ، وأن آخرهم — وربما أكثرهم شهرة — هى الملكة كليوباترا ، وهى امرأة على جانب من الجمال وذات كفاية ممتازة ، وقدرة غير عادية على التحدث بعدة لغات[٢٧] .

وأثنى الرومان على الملكة كليوباترا ما وسعهم الثناء على غير رغبة منهم ، وخافوها وهى امرأة ، كما لم يخافوا أحداً منذ هانيبال[٢٨] . وكان هدف كليوباترا أن تكون إمبراطورة العالم الرومانى . وكان من الممكن أن تنجح لو أن حبيبها يوليوس قيصر عاش ، ولم يقتله الرومان اغتيالا سنة ٤٤ . ولجأت كليوباترا إلى أنطونيوس ، لكن موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق . م . وضعت نهاية لأحلامها ، وفى السنة التالية انتحرت كليوباترا[٢٩] خشية أن تساق إلى روما أسيرة . وكان آخر البطالمة بطلميوس الرابع عشر واسمه قيصرون بن قيصر وكليوباترا ، وقتل هذا الملك سنة ٣٠ ق . م . بأمر أوكتافيوس (أغسطس) ، وكان فى السابعة عشرة من العمر ، وهو فى العصر الهلنستى يشبه النسر الصغير ابن نابليون. ومنذ ذلك الحين باتت مصر ولاية رومانية ، ولم يستمر العصر الذهبى الهلسنّى إلا قرناً واحداً وهو القرن الثالث . ولكن كان قرناً كافياً لحفنة قليلة من نوابغ الرجال لأن يقوموا بأعمال خالدة .

وهنا يسأل الباحث : أى نوع من البلاد كانت مصر تحت حكم ملوك البطالمة ؟ لا أقصد الناحية الجغرافية الطبيعية : فمصر لم تتغير منذ أيام الفراعنة ، فهى منحة رائعة من النيل . وجغرافية مصر وجوها الطبيعى لم يتغير ، ولكن ماذا نقول عن الجو السياسى ؟ ربما يدعى الباحث أن الجو السياسى كذلك لم يتغير كثيراً ، فيما عدا أن سادة البلاد وأصحاب الأراضى ومن عليها من الناس لم يعودوا مصريين ، بل مقدونيين ويونانيين .

وكان اليونانيون مهتمين أشد الاهتمام بمصر منذ عهد بسماتيك الأول ، رأس الأسرة السادسة والعشرين أو الأسرة الصاوية (٦٦٣ — ٥٢٥ ، حكم بسماتيك من ٦٦٣ إلى ٦٠٩) . وأسس اليونانيون جاليات لهم فى الدلتا وازدهرت

شكل ٤ – تمثال بطلميوس الثانى فيلادلفوس فى الفاتيكان – والتمثال مصنوع من الجرانيت الأحمر ويبلغ ارتفاعه ٢,٦٦ متراً بالقاعدة ، وبغيرها ٢,٤٦ ، وفيلادلفوس بن بطلميوس الأول من زوجته بريتيكا الأولى ، وهو ثانى ملوك الأسرة البطلمية ، من سنة ٢٨٥ إلى سنة ٢٤٦ .

تزوج فيلادلفوس ارسنوى الثانية حوالى سنة ٢٧٦ ، ويدل عليه أن للتمثال نقشين بالهيروغليفية أقصرهما يقول : « ملك مصر العليا والسفلى . . . ابن رع بطلميوس عاش إلى الأبد » .

Biuseppe Botti, Pietro Romanelli le sculture del Museo Gregoriano Egizio
(Monumenti veticani di archeologiase d'arte, vol. 9; Vatican, 1951) no. 32, pp. 24 — 25, Pls. XXII and XXIII).

شكل ٥ – تمثال الملكة ارسنوى فيلادلفوس . وهذا التمثال موجود فى الفاتيكان . والتمثال مصنوع من حجر الجرانيت الأحمر طوله ٢,٧٠ مترا (٢,٤٨ بدون القاعدة) . وهذه الملكة (حوالى ٣١٦– ٢٧٠) ابنة لبطلميوس الأول من زوجته برنيكا الأولى وهى شقيقة بطلميوس الثانى وزوجته فى نفس الوقت. وهناك نقشان هيروغليفيان يدلان عليها . أقصرهما يقول : « الابنة الحقيقية ، والشقيقة الحقيقية ، والزوجة الحقيقية ، وسيدة الأرضين ، ارسى ... فيلادلفوس » .

(Giuseppe Botti, Pietro Romanelli, Le sculture del Museo Gregoriano Egizio (Monumenti vaticani di archeologia e d'arte, vol. 9., Vatican, 1951), no. 31, pp. 22 — 23, pls. XXII and XXIV.)

هاتان الصورتان مأخوذتان بإذن من أمناء متاحف الفاتيكان . ومن الواضح أن هذين التمثالين نحتا فى وقت واحد ، غير أن الصورتين اللتين أخذتا فى أوقات وأحوال مختلفة تبدوان مختلفتين تمام الاختلاف . وهذان التمثالان لم يقصد بهما أن يكونا صورتين طبق الأصل ، بل رمزين لملك وملكة من البطالمة.

تلك الجاليات رغم عدم مبالاة المصريين أو عداوتهم[٣٠] وفى عهد خامس ملوك تلك الأسرة ، وهو أحمس الثانى (٥٦٩ — ٥٢٥)— الذى سماه اليونانيون أماسيس — كان التجار اليونانيون يتركزون فى مدينة واحدة هى نوقراطيس ، الواقعة على المصب الكانوبى للنيل فى غرب الدلتا ، وغدت تلك المدينة على درجة كبيرة من الرخاء ، وكانت لها كل مقومات المدينة اليونانية ، حيث ملكت كل من الجاليات من مختلف المدائن اليونانية معابد خاصة بها . وكان أماسيس ملكاً طيباً كريماً فى معاملته لليونانيين ، يتمتع بمحبتهم ؛ غير أن كل امتياز حصلوا عليه كان متوقفاً على رضا المصريين ، وكثيراً ماتسبب فى خلق غيرة شديدة .

ثم انعكس الموقف بعد اعتلاء البطالمة العرش ، فلم يعد اليونانيون ضيوفاً على ترحيب أو كراهية ، ولكنهم أصبحوا سادة . غير أن البطالمة استمروا فى اتباع التقاليد المصرية القديمة ، فكانوا هم أصحاب الأرض وملاك كل شىء ، ثم إنهم كانوا مقدسين ومؤلهين ، وكان الملك البطلمى هو الدولة . وينبغى أن نضيف إلى ذلك أن البطالمة الأولين على الأقل كانوا على جانب من المقدرة فى الإدارة ، وبفضلهم عم الرخاء مصر إلى درجة لم يسبق لها مثيل من قبل .

وخلال حكم النصف الأول من عصر ملوك هذه الأسرة ، اتصفت الإدارة بالكفاية بوجه عام ؛ إذ كان النظام محفوظاً ، وفيضان النيل السنوى موضع عناية ، والرى فى تحسن . وأمكن ضبط المحصولات الزراعية ، وبنيت المخازن لحفظها ، واستوردت أنواع جديدة من الحيوان للعمل فى الأرض ، كما استوردت حبوب جديدة للزراعة فى جو مصر ، وازدادت المساحة المنزرعة ، ودخلت أنواع جديدة من الحرف . وانتظمت العملة والتجارة وأعمال البنوك[٣١] على وجه أفضل واتسعت التجارة الخارجية اتساعاً كبيراً . ولذا كانت مصر تصدر الحبوب ونبات البردى وألياف التيل والزجاج والمرمر . وكان استخدام الجمل من أعظم المستحدثات الاقتصادية المنسوبة إلى بطلميوس فيلادلفوس ، وربما جاءت الجمال إلى مصر قبل البطالمة ، ولكن ذلك لم يكن قبل عصرهم بزمن طويل[٣٢] . ثم إن بطلميوس أدخل نظاماً للبريد على النمط الفارسى ، وكانت الجمال لايعادلها شىء لهذا

الغرض، نظراً لقدرتها على السير بسرعة كبيرة ، مع احتمال مشاق السفر ، والقدرة على نقل الأحمال الثقيلة . وكانت الصناعة الوحيدة التى يبدو أن الحكام اليونانيين أهملوها هى التعدين ؛ وعلى أى حال لم يعمد البطالمة إلى زيادة الثروة المعدنية ، ولم يستغلوا المناجم المعروفة استغلالا حسناً كما فعل الفراعنة من قبلهم[٣٣] . وذهبت الأرباح الزراعية والتجارية والصناعية كلها طبعاً إلى جيب الملك ومجموعة صغيرة من الشركاء . أما الفلاحون فلم يحصلوا على شىء أكثر مما يقيم أودهم ويبقيهم على قيد الحياة . وفى بداية العصر البطلمى . لم يقم الفلاحون بأية ثورة ، لأنهم ربما كانوا يعاملون معاملة أفضل قليلا عما كانوا يعاملون من قبل ، ولأنه كانت تعوزهم الإمكانيات المادية والروحية[٣٤] .

وإذ توحدت مصر وفلسطين تحت الحكم الفارسى ، واستمرتا على تلك الحال تحت حكم البطالمة الأولين حتى سنة ١٩٨ ق.م. فمن الطبيعى أن يهاجر كثير من اليهود إلى مصر ، ولاسيما بعد أن صارت مصر أكثر رخاء ، ومنحت فرصاً أعظم لأولئك المهاجرين ؛ ويحتمل أن أغلب المتوطنين من اليهود فى مصر فى القرن الثالث كانوا من مواليد البلاد المصرية ، وبما أن الإدارة العليا لأى عمل من الأعمال كانت فى أيدى اليونانيين ، فسرعان ما اصطبغ اليهود بصبغة يونانية ونسى بعضهم استعمال اللغة العبرية ، وقلدوا اليونانيين فى عاداتهم وأسمائهم التى تتضمن مقاطعها لفظ تيوس أى الرب مثل ثيودوتوس أو دوروثيا .

ولم يكن التعايش بين الجاليات اليونانية واليهودية سوى مظهر واحد من عدة مظاهر، فنى أثناء الحكم اليونانى أصبحت مصر أهم بقعة يختلط فيها الشرق بالغرب. وشملت الإمبراطورية البطلمية فى أوج اتساعها ، لا مصر فحسب ، بل شملت ليبيا ، وأجزاء من إثيوبيا ، وبلاد العرب ، وفينيقيا ، وجنوب سوريا ، وقبرص وبعض جزر السكلاديز ، واجتذبت مصر عناصر من جميع تلك البلاد . غير أنه من الطبيعى أن يكون الجزء الأكبر من السكان من المصريين ، وأن تكون الطبقة العليا من المقدونيين ، واليونانيين ،[٣٥] وكان هناك كثير من اليهود ، ولكن كان هناك أيضاً شرقيون آخرون ، وسوريون ، وعرب ، وأبناء بلاد ما بين

النهرين ؛ وفارسيون ، وبكتريون ؛ وهنود ؛ وأفريقيون — ومن هؤلاء سودانيون وصوماليون وإثيوبيون .

وكانت الأمم الهلنستية على استعداد للترحيب بالعلماء الأجانب ، من حكماء الإيرانيين وفلاسفة الهنود وكثيرين غيرهم ، وذلك لشدة إقبال تلك الأمم على المعرفة الروحية ، فضلا عن شعورها بنوع من الجوع الروحى . وفتح اليونانيون الذين عاشوا فى الشرق قلوبهم لعبادة الآلهة الفريجية « الأم العظمى » وللإله مثراس ، وللآلهة المصرية وبخاصة إيزيس وأوزيريس . وينبغى أن نذكر أن الرغبة فى الاتصال بديانات حية كانت رغبة كبيرة فى بلاد اليونان منذ قديم الزمان ، ويشهد بذلك وجود العبادات الغامضة كالأليوسينية والأورفية والديونيسية وانتشارها بين اليونانيين . ومنذ أيام أرسطو وأبيقور . فقدت الأساطير اليونانية القديمة مكانتها ، غير أن ديانة النجوم التى حلت محلها إلى حد ما كانت متعذرة الفهم وتعوزها الحرارة ليقنع بها عامة الناس ... وكان اليونانيون الذين استقروا فى آسيا أو فى مصر بعيدين عن هياكلهم الرئيسية القديمة ، وأدى ظمؤهم الدينى إلى شدة تأثرهم بالطقوس الدينية الشرقية ؛ إذ كانوا يحضرون لمشاهدة الأعياد التى يحتفل بها من حولهم من الناس ، وكانت هذه الأعياد تترك أثراً عميقاً فيهم . وساعدت الزوجات الشرقيات مساعدة كبيرة فى تقريب الطقوس الدينية الشرقية المقدسة إلى قلوب أزواجهن اليونانيين ، وبذلك ازداد عدد المتحولين إلى الديانات الشرقية تدريجاً .

وكانت عملية التوفيق بين مختلف العقائد الدينية ظاهرة بوضوح وقوة وخاصة فى مصر ، وبدأت تلك العملية منذ البداية سنة ٣٣١ ق . م . حين زار الإسكندر الأكبر معبد أمون فى واحة سيوة[٣٦] . وأعلن الكاهن الأكبر بالمعبد بأن الإسكندر ابن للإله زيوس أمون[٣٧] . واعترف المصريون عموماً بمكانة حكامهم المقدسة ، ولذلك كان طبيعيًّا أن يدعى ملوك البطالمة الألوهية ، ويطلبوا لأنفسهم العبادة والقداسة وأن يجيبهم الناس إلى ذلك . وأرهبت الاحتفالات المنمقة التى كانت تقام فى المعابد المصرية البطلمية جميع الرعايا اليونانيين فى مصر . وكان

الملوك على استعداد للمشاركة مع الآلهة المصرية الأخرى ، وكان من المستحيل عليهم ألا يساهموا فى محبة دين يؤلههم . وتبنى البطالمة جميع العادات الفرعونية ؛ مثل زواج الإخوة الملكيين من أخواتهم ، فتزوج بطلميوس الثانى فيلادلفوس من شقيقته ارسنوى الثانية ، لأن الملوك المقدسين يبلغون من العظمة ما يمنعهم من الزواج من خارج أسرتهم .

يضاف إلى ذلك أن كل أسرة من الأسر الملكية فى مصر جرت على تركيز اهتمامها نحو أحد الآلهة الأقدمين أو أدخلت إلهاً جديداً ، وبهذه الروح تركز اهتمام البطالمة نحو الإله سارابيس ، غير أنهم لم يخترعوا هذا الإله ، بل إنهم أدمجوا عبادة أوزيريس تدريجياً فى عبادة العجل المقدس أبيس[٣٨] ، وصار أوزيريس وأبيس معاً موضع العبادة فى معبد السارابيون[٣٩] فى بلدة ممفيس (سقارة).

وكانت عبادة سارابيس هلنستية تماماً ، لأنها جمعت بين عناصر مصرية وعناصر يونانية ، ويرجع الفضل فى هذه العبادة الجديدة نقلا عن پلوتارك[٤٠] إلى مانيتون (النصف الأول من القرن الثالث ق.م.) ، وهو كاهن من كهنة معبد هليوبوليس (عين شمس) ، بالاشتراك مع تيموثيوس وهو كاهن من كهنة معبد ديمتيير اليونانى ، فضلا عن ديميتريوس الغاليرى . وهو الذى شفاه الإله سارابيس من العمى ، ولذا كتب الأناشيد فى مدحه . وتدل النقوش القديمة على ظاهرة التوحيد بين الإله الرومانى زيوس والإله سارابيس ، أى إنه صار هناك إله واحد اسمه زيوس سارابيس . وتتضح الصفة الهلنستية فى هذه الديانة البطلمية المصرية الجديدة كل الوضوح بحسب اللغة اليونانية التى كتبت بها النصوص الدينية الخاصة بهذه الديانة ، كما تتضح هذه الصفة الهلنستية فى الفنون التى غدت يونانية أكثر منها مصرية ، بل يونانية خالصة ، وذلك باستثناء الكتابة الهيروغليفية .

« وأقدم سارابيون » هو معبد أوزوراپيس بسقارة ويحتوى على مقابر تحت سطح الأرض لعجول أبيس ، اكتشف أوجست ماريت هذه المقابر سنة ١٨٥١ ، ويرجع تاريخ أقدم هذه المقابر إلى أمنحوتب الثالث (١٤١١ — ١٣٧٥) الذى يعرف لدى اليونانيين باسم ممنون . وبالقرب من هذا المعبد بنى نكتانيبيس الثانى

(٣٥٨ – ٣٤١) سارابيون آخر ، ويدل هذان المعبدان على قدم عبادة أوزورابيس وطول استمرارها .

وأقيمت المعابد السيرابية خلال العصر الهلنستى فى المدن المصرية الكبرى ، ومنها معبد أبى قير الذى كان مقصد كثير من الناس للشفاء من الأمراض على ساحل البحر شرقى الإسكندرية ، وكان طبيعياً أن يكون سارابيون الإسكندرية أهم تلك المعابد ، وموضعه الربوة التى لا يزال «عمود بومبى»[٤١] قائماً عليها حتى العصر الحاضر . وربما يكون هذا العمود جزءاً من السارابيون ، وربما أمر بحفظه أو ببنائه فى هذا المكان الإمبراطور الرومانى ثيودوسيوس (٣٧٩ – ٣٩٥) أو ثيوفيلوس[٤٢] أسقف الإسكندرية ، من باب إحياء ذكرى هدم معبد السارابيون وانتصار المسيحية سنة ٣٩١ ميلادية .

والمعروف أن عبادة سارابيس أخذت فى الزوال وقتذاك ، وهى بالضرورة عبادة بطلمية ، ولذا حل محلها فى العصور الرومانية عبادة إيزيس على نطاق واسع . ومن هذا يتضح أن انتصار الأسقف ثيوفيلوس على عبادة سارابيس لم يكن انتصاراً على عبادة سارابيس بقدر ما كان انتصاراً على الوثنية بوجه عام .

نشأة مدينة الإسكندرية

لم تكن مراكز الجاليات اليونانية التى تطورت فيها الحضارة الهلنستية فى مصر تحت رعاية البطالمة سوى جزء صغير من البلاد المصرية . ولم يكن ذلك سوى استمرار لتقليد قديم ، ففى أثناء حكم الأسرة السادسة والعشرين أسس الملك أحمس الثانى (أماسيس) مدينة نوقراطيس ، وأجبر التجار اليونانيين وقتذاك على ألا يقيموا فى مكان آخر . ثم أنشأ الإسكندر مدينة جديدة سميت « الإسكندرية » نسبة إليه ، وأقام بطلميوس سوتير مدينة بطلومايس هيرميو فى مصر العليا ، وكانت هناك مراكز يونانية أخرى . وبينما هيمن الملوك البطالمة على الدولة بطريقة تشبه هيمنة أصحاب الأراضى على ممتلكاتهم حصلت الجاليات اليونانية على قدر من الاستقلال الإدارى وفقاً للتقاليد اليونانية .

وقيل إن كثيراً من المدن أسسها الإسكندر الأكبر فى زمنه ، أو إنها تأسست

تخليداً لذكراه، وحملت هذه المدن جميعاً اسم «الإسكندرية» . ومن هذه المدن سبع عشرة مدينة ، كلها فى آسيا تقريباً ، وكثير منها يقع فيما وراء نهر دجلة ، ومن هذه مدينتان اثنتان على نهر السند ، ومدينة ثالثة على نهر جيلوم واسمها الإسكندرية بوكيفالا[٤٣] . ومن هذه المدن كذلك مدينة فيما وراء نهر جاكسارتيس (جيحون) وتسمى الإسكندرية اسخاتى أو الأخيرة[٤٤] . واندثر معظم تلك المدن ، أو أضحى عديم الأهمية ، على حين لم تلبث المدينة الوحيدة التى أسسها الإسكندر فى مصر سنة ٣٣٢ ق . م أن تبوأت مكانة كبرى بفضل رعاية البطالمة ، وظلت هذه المدينة من أعظم مدن غرب آسيا وأكبر ميناء فى شرق البحر المتوسط حتى العصر الحاضر .

ويقال إن الإسكندر أسس الإسكندرية ، غير أن ذلك لا يستطيع أن يعنى سوى أنه أعطى تعليمات عامة لإقامة مدينة جديدة فى الطرف الغربى من دلتا النيل ، ولم يكن باستطاعة الإسكندر أن يفعل أكثر من ذلك ؛ لأنه لم يلبث أن غادر مصر بعد ذلك بقليل . أما المؤسس الحقيقى لمدينة الإسكندرية فهو بطلميوس سوتير ؛ إذ كانت هذه المدينة لاتزال صغيرة لاتصلح لاستخدامها عاصمة عندما تولى إدارة البلاد المصرية ، فاتخذت حكومته أول مقر لها فى ممفيس . ثم حصل بطلميوس سوتير على جثمان الإسكندر بعد قليل من وفاته فى بابل سنة ٣٢٣ وأحضره إلى ممفيس . ثم نقل بطلميوس سوتير جثمان الإسكندر إلى الإسكندرية ، بعد أن تم بناؤها واتسعت وصارت عاصمة مملكة البطالمة ، وبنى بطلميوس سوتير بالإسكندرية معبداً لاستقبال جثمان الإسكندر وسماه سيما — أى العلامة — ومن المحتمل أن يكون ملوك الأسرة البطلمية دفنوا واحداً بعد آخر فى نفس هذا المعبد المقدس ، وبذلك أصبحت مقبرة سيما نوعاً من المدافن اليونانية ، ولم يبق من هذه المدافن أى أثر معروف ، وموقعها لايزال مجهولا حتى العصر الحاضر[٤٥] .

ومن الغريب أن هذه العاصمة المصرية لم تكن جزءاً من مصر الفرعونية ، واسمها القديم باليونانية أو اللاتينية « الإسكندرية بالقرب من مصر » . ولم يكن هذا صحيحاً من الناحية الجغرافية ، فالإسكندرية تقع فى داخل الجزء الشمالى

الغربى من البلاد المصرية ، لا فى نهايته ، بدليل أن معبد آمون الذى زاره الإسكندر يقع فى الجنوب الغربى من الإسكندرية . غير أن التسمية القديمة « بالقرب من مصر » تعبر عن حقيقة سياسية ؛ فالإسكندرية لم تكن عاصمة مصرية أصيلة ، ولكنها كانت المقر الملكى لإدارة الدولة البطلمية والجاليات اليونانية ، وتشبه تسميتها القديمة قولنا « هونج كونج بالقرب من الصين » أو « جوا بالقرب من الهند » ، وذلك لأن الغالبية العظمى من سكان هاتين المدينتين من الصينيين . والأقلية الضئيلة فيها من الإنجليز . فهى فى الصين ومع ذلك فهى خارجة عنها . وفى المدينة الثانية من هاتين المدينتين يعيش عدد كبير من الهنود ، وعدد قليل من البرتغاليين ؛ فهى فى الهند ومع ذلك فلا تتبعها .

وتألف سكان الإسكندرية من طبقة حاكمة قليلة العدد من المقدونيين واليونانيين[٤٦] ، وعدد عظيم من الوطنيين المصريين . وبالإضافة إلى ذلك ، كانت هناك جالية كبيرة من اليهود (لأن فلسطين كانت جزءاً من المملكة البطلمية حتى حوالى سنة ١٩٨ ق . م .) ؛ وذلك فضلا عن عدد من الشرقيين من السوريين والعرب والهنود . والباحث لايلبث أن يرى أن الإسكندرية القديمة مدينة تستطيع أن تقارن بمدينة نيويورك الحالية : إذ كان العنصران الحاكمان فى الإسكندرية هم اليونان واليهود ، على حين يتكون العنصران الغالبان فى نيويورك من البريطانيين أو الأيرلنديين واليهود .

والمقارنة بين الإسكندرية ونيويورك سليمة من نواح أخرى ؛ لأنه إذا أخذ الباحث بعين الاعتبار ما هنالك من اختلاف كبير فى سرعة السفن فى البحار وما تمخض عن الاختراعات الحديثة من تقريب المسافات البحرية فإنه لا يلبث أن يجد أن النسبة بين ميناء الإسكندرية القديمة وموانى بلاد اليونان لاتختلف كثيراً عن النسبة بين ميناء نيويورك الحالية والموانى الإنجليزية ؛ وكان الإبحار من بيريه (ميناء أثينا) إلى الإسكندرية رحلة بحرية تكاد تضاهى السفر فى العصر الحاضر من نهر الميرزى إلى الهدسون .

وفى هذا المعنى ، كانت الإسكندرية وليدة خيال ملك عظيم لأن الإسكندر

المقدونى قدم للعالم فكرة جديدة لاحصر لنتائجها ، فنظرية اليونان عن المدينة الدولة حلت محلها نظرية وحدة العالم التى تجمع بين الاختلافات الخلقية والدينية فى حضارة مدينة واحدة .

ولم تكن الإسكندرية عاصمة فحسب ، بل مدينة عالمية ، وكانت فى ذلك هى الأولى من نوعها [٤٧] . وكان اليونانيون مهندسين معماريين عظماء لا تقتصر عظمتهم على بناء المعابد ، بل تمتد إلى بناء مدن بأكملها . وشرح هيبوداموس الميليطى [٤٨] الأسس المادية والروحية لتخطيط المدينة منذ منتصف القرن الخامس ق.م. ، وكان ذلك أحد مظاهر العبقرية اليونانية . ويلاحظ أن اليونانيين لم يتركوا المدن الحديثة الإنشاء تنمو نمواً عشوائياً على الطريقة التى تنمو بها مدننا الأمريكية الحديثة . ومما يقال فى هذا الصدد إن شوارع مدينة بوسطن الحالية حددتها الأبقار فى ذهابها إلى مراعيها . ورجوعها إلى حظائرها ، وذلك على حين أن تخطيط الإسكندرية لم يكن عرضاً .

وعهد الإسكندر المقدونى بتخطيط مدينة الإسكندرية إلى دينوكراتيس الرودسى الذى كان أعظم المهندسين المعماريين فى عصره ، وهو الذى صمم معبد ارتيميس الجديد بمدينة إفسوس [٤٩] ، وهو كذلك صاحب فكرة نحت إحدى قمم جبل آثوس على شكل تمثال ضخم للإسكندر [٥٠] . وكان دينوكراتيس لايزال على قيد الحياة زمن بطلميوس الثانى ، وقيل عنه إنه صمم معبداً سقفه مسلح بحجر المغناطيس لكى يبدو تمثال الملكة أرسنوى الثانية معلقاً فى الفضاء ، وذلك تخليداً لذكرى هذه الملكة [٥١] .

وبنيت مدينة الإسكندرية على مساحة ضيقة من الأرض يحدها من الشمال البحر المتوسط ومن الجنوب بحيرة مريوط ، ويتوسط المدينة طريقان كبيران : أحدهما طويل ، وهو الطريق الكانوبى ويمتد من الشرق إلى الغرب ، والآخر أقل طولا من الطريق الأول ويقع عمودياً عليه . وكان مركز المدينة عند أو بالقرب من تقاطع هذين الطريقين الرئيسيين . وكانت هناك شوارع أخرى موازية لهذين الطريقين الرئيسيين على نمط رقعة الشطرنج ، واحتوت المدينة على خمسة أقسام

سميت بالحروف الخمسة الأولى من الأبجدية اليونانية التى هى أيضاً الأرقام العددية الخمسة الأولى . وكانت القصور الملكية ومجموعة كبيرة من المعابد والحدائق العامة تشغل جزءاً كبيراً من المدينة (حوالى ربعها أو ثلثها)، وتقع المدافن والموسيون والمكتبة ، وكذلك معسكرات الحرس فى هذا الحى الملكى ، الذى كان يسمى باسم بروخيون . وقامت على الطريق الكانوبى معابد ومبان عامة أخرى . وعلى التل الشرقى الذى يسمى الآن كوم الدكة كانت هناك حديقة كبيرة يطلق عليها اسم البانيون ، أى معبد الإله بان ، وعلى تل آخر كان السارابيون فى الجنوب الغربى من المدينة القديمة ، ثم كانت هناك ملاعب رياضية وميادين لسباق الخيل ، وامتدت مجموعتان من المدافن إلى الطرفين الشرقى والغربى ، ونشأت الصواحى تدريجياً فى الاتجاه الشرقى فى سهل الحدراء (الحضرة) وعلى تلال الرمل[٥٢] . أما الموانى فسيأتى وصفها فيما يلى .

ومن العسير أن نكتب عن يقين تاريخ الإسكندرية كتابة إجمالا وتفصيلا ، وذلك لأن هذه المدينة اليونانية القديمة تشبه الوثيقة المكتوبة التى مسحها المسيحيون .

موانى الإسكندرية والمنارة

كان اختيار موقع لبناء مدينة الإسكندرية لتكون المدينة الرئيسية لسكنى اليونانيين بمصر اختياراً حكيماً ، وينبغى لنا أن نفترض أن اختيار الإسكندر لهذا الموقع كان بإيحاء التجار اليونانيين الذين عاشوا فى مدينة نوقراطيس ، وكانوا على معرفة تامة بالأماكن المختلفة التى تصلح لهذا الغرض فى دلتا النيل . ولم يكن موقع الإسكندرية مجهولا قبل عصر الإسكندر ؛ إذ جاء ذكر جزيرة فاروس فى الميناء — الذى سنعود هنا للكلام عنها — فى الأوديسا (الكتاب الرابع . سطر ٣٥٥) على أنها تبعد يوماً بالبحر عن أرض مصر ، وربما كان الشاعر هومر يعنى أنها تبعد يوماً بالبحر عن الفرع الكانوبى للنيل ؛ وذلك لأن هذه الجزيرة

لاتبعد أكثر من ميل عن الشاطئ . وكان موضع مدينة الإسكندرية قرية للصيد[٥٣] ، ولكنها لم تكن مدينة .

لماذا وقع اختيار الإسكندر على هذه البقعة المعزولة من الجانب الغربي للدلتا ؟ ربما يكون أحد الأسباب أن الموانى الواقعة شرقى هذا الموقع[٥٤] كانت مهددة دائماً بخطر الانسداد من جراء الطمى الذى يجلبه النهر ، على حين كان عدم الاتصال المباشر بين الإسكندرية والنيل سبباً فى نجاتها من هذا الخطر .

ونشأت المدينة الجديدة بين البحر وبحيرة مريوط التى أمكن الاتصال بالنيل عن طريقها ، ومن ثم كان للإسكندرية ميناءان : أحدهما شمال المدينة على الساحل ، والآخر جنوبها من ناحية البحيرة .

وذكر المؤرخ سترابون (النصف الثانى من القرن الأول ق. م .)أن الحركة التجارية من ناحية النيل كانت أنشط منها من ناحية البحر . وهذا معقول جداً ؛ بدليل أن مدينة باريس اليوم من أكبر موانئ فرنسا ، إن لم تكن أكبرها ، مع أنها تعتمد اعتمادا كلياً على الحركة الملاحية فى نهر السين وقنواته ، مع العلم بأن نهر النيل أكبر أنهار العالم .

ويقع الميناء البحرى للإسكندرية فى مواجهة جزيرة فاروس التى ربما كان وجودها أحد العوامل الحاسمة فى اختيار هذا الموقع . وتضمن المشروع الأصلى للمدينة بناء جسر طوله[٥٥] سبعة ستاديوم (= ١٤١٤ياردة)يصل بين جزيرة فاروس والشاطئ ، وهذا يجعل للإسكندرية ميناءين بحريين منفصلين ، وهما « الميناء الشرقى » أو الميناء الكبير ، ويحميه جسر من ناحيته الشرقية ، والميناء الغربى أو « يونوستوس» أى ميناء العودة الحميدة[٥٦]

وعندما يكون فيضان النيل عالياً تمتلئ بحيرة مريوط بالمياه ولم تتكون مستنقعات ، كما يحدث فى أماكن أخرى . ولذا صار هواء الإسكندرية نقياً بفضل موقعها بين البحر المتوسط وبحيرة مريوط ، وبفضل بعدها عن أراضى المستنقعات . ولطفت الرياح الرئيسية الآتية من الشمال الغربى هواء الإسكندرية ،

وكان للمدينة ميزة كبرى أخرى هى خلوها من حمى الملاريا . ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن اضمحلال بلاد اليونان يعزى من ناحية إلى كثرة تكرار الملاريا ، على حين كانت الدلتا — أو على أية حال الجزء الغربى منها — خالية لحسن الحظ من هذا الوباء الفتاك (٥٧).

وتقوم جزيرة فاروس ستاراً شمالى الميناءين . وعليها بنيت منارة كبيرة يستطيع كل قادم إلى الإسكندرية عن طريق البحر أن يراها من بعيد . والواقع أن القادم إلى الإسكندرية لم يكن يرى الجزيرة ، بل المنارة فيقول : فاروس (٥٨) ومعناه المنارة . وسوف نسمى الجزيرة بهذا الاسم فيما يلى .

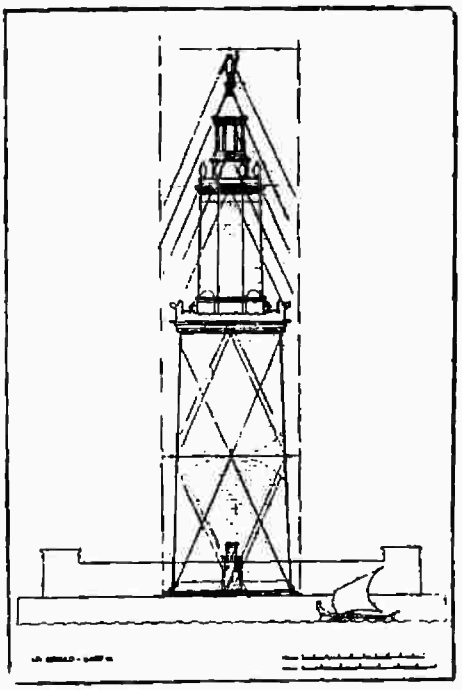

شكل ٦ — صورة تخطيطية لمنارة الإسكندرية (فاروس) كما تخيلها :
M.L. Otero : Andalus 1, plate 4 a (1934).

وبنيت فاروس فى أقصى الطرف الشرقى من هذه الجزيرة زمن بطلميوس الثانى فيلادلفوس حوالى سنة ٢٧٠ق . م . . وقام على بنائها المهندس المعمارى سوستراتوس الكنيدى . وأثارت فاروس إعجاب كل مسافر ، لا فى العصور القديمة فحسب ، بل العصور الوسيطة أيضاً ، لأنها ظلت قائمة حتى القرن الرابع عشر . وفى المؤلفات الأدبية فى العصور الوسطى — ولاسيما فى المؤلفات الأدبية العربية وخاصة يوجد عدد كبير من الإشارات إلى المنارة — ويرجع الوصف المفصل الوحيد الذى لدينا إلى عالم إسبانى مسلم هو يوسف بن الشيخ

المالقى (١١٣٢ – ١٢٠٧) الذى أقام بالإسكندرية سنة ١١٦٥ ، وهذا الوصف وارد فى كتابه المسمى « ألف باء » ، وهو موسوعة موجزة ومرتبة حسب الحروف الأبجدية ، كتبها المؤلف لتعليم ابنه عبد الرحيم .[٥٩] ولما زار المالقى فاروس سنة ١١٦٥ وجد أن المنارة لم تعد صالحة للعمل ، ولكنها على أية حال كانت لاتزال محتفظة بشكلها ؛ لأن المالقى استطاع أن يصعد إلى قمتها وأن يقيس كثيراً من أبعادها ، وأن يرى فى وسط السطح العلوى منها مسجداً صغيراً له أربعة أبواب وتعلوه قبة . ولاحظ المالقى أيضاً وجود نقش يونانى (على الواجهة الجنوبية تحت سطح الطابق الأول بقليل) . ووصفه وصفاً عاماً . لكنه لم يستطع قراءته .

ونستدل من الوصف العربى أن المنارة أقيمت على قاعدة من الصخر يبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر اثنى عشرة ذراعاً (=٧ر٢٠ أمتار). وبنيت المنارة من ثلاثة طوابق – وهى الأسفل والمتوسط والأعلى – وكلما ارتفع الطابق قلت مساحته. وكان الطابق الأسفل مربع الشكل ، والأوسط مثمن الأضلاع ، والأعلى مستديراً . وبلغ محيط كل قاعدة من قواعد الطوابق الثلاثة على التوالى : ٤٥×٤= ١٨٠ خطوة (= ١٢٦ متراً)، ١٠×٨ = ٨٠ خطوة (= ٥٦ متراً) ، و٤٠ خطوة (= ٢٨ متراً).[٦٠] وبلغ ارتفاع الطابق الأسفل ٧١ متراً ، وبه ٥٠ منفذاً فى حوائطه ، وطريق حلزونى[٦١] من الداخل يصل إلى سطح الطابق الأسفل ، وكان هذا الطريق الحلزونى من الاتساع بحيث يسمح لفارسين بأن يمرا راكبين فى اتجاهين مختلفين دون صعوبة . وللوصول إلى السطحين الأوسط والأعلى يستخدم الصاعد سلمين حجريين ، الأول ٣٢ درجة والثانى ١٨ درجة . ويحتمل أن مصدر النور المنبعث من قمة المنارة كان نيراناً تظل موقدة طوال الليل على السطح العلوى .

وبلغ الارتفاع الكلى للمنارة ١٢٠ متراً على الأقل ، وربما وصل إلى ١٤٠,٣ متراً ، ولذا كانت المنارة برجاً شاهقاً ، ولابد أنه كان من السهل رؤيتها على مسافة بعيدة سواء من البر أو البحر . وكان منظر المنارة يروع اليونانيين والأجانب القادمين بحراً إلى العاصمة البطلمية وكانت المنارة إحدى

عجائب العالم السبع (انظر ما يلى)، غير أن هذه المنارة دمرت بفعل زلزال فى القرن الثالث عشر الميلادى .

كانت فاروس أحسن إعلان عن الحركة التجارية فى الإسكندرية ، وأفضل دليل على رخائها . وكان هذا الرخاء المادى متناقضاً تمام التناقض مع شدة فقر الفلاحين ، وهو فقر شديد استمر إلى عهد قريب . وتناقص هذا الرخاء المادى كذلك مع الاضمحلال التجارى لبلاد اليونان فضلا عن الفقر الذى استشرى فى معظم أقاليمها ؛ إذ هبطت أثينا إلى مستوى مدينة إقليمية عضها الفقر بأنيابه ، غير أن مكانتها الروحية ظلت عظيمة كما كانت دائماً ، ولم تزل مدارسها هى المدارس الأولى فى العالم القديم ، كما لم تزل هى الكعبة التى يحج إليها كل محب للمعرفة .

وكانت الإسكندرية تتمتع برخاء وفير ، أو بعبارة أخرى ، سيطر ملوكها وكبار رجال المال والأعمال فيها على التجارة العالمية . وكان نهب اليونان لآسيا ومصر هو السبب فى إطلاق الثروات الطائلة التى اكتنزها الملوك الشرقيون سابقاً ، وبذلك ازداد تداول الذهب والفضة ازدياداً كبيراً . وفى أسواق الإسكندرية تجمعت المنتجات الوفيرة من مصر مثل الحبوب ، وأوراق البردى ، والمصنوعات الزجاجية ، والمنسوجات والأقمشة المطرزة المتعددة الأنواع ، والسجاجيد ، وأنواع الجواهر الثمينة ، كما تجمعت منتجات الجزيرة العربية مثل العطور والبخور[٦٢] ، فضلا عن منتجات بلاد حوض البحر المتوسط . وكشفت الحفريات الأثرية التى أجريت فى المجر والاتحاد السوفييتى — إذا نحن أغفلنا البلاد القريبة — عن وجود أدوات صنعت فى الإسكندرية . وفى الإسكندرية كذلك اكتشفت أدوات خزفية صنعت فى رودس ، وثاسوس ، وكنيدوس ، وكريت وغيرها من البلاد الأخرى . وجدير بالذكر أن الأغلبية العظمى من الأوانى الخزفية كانت من رودس ، لأن هذه الجزيرة كانت من أعظم المراكز التجارية فى شرق البحر المتوسط . وكان مقر المصرف المالى الرئيسى المصرى فى مدينة الإسكندرية ،

كما كانت كل حرفة أو تجارة تدفع عنها ضريبة يتصرف فيها الملتزمون الملكيون نظير دفع مبالغ معينة ، وكان الكثير من هذه الحرف والمتاجر [٦٣] احتكاراً .

ولم تكن منارة الإسكندرية رمزاً للديموقراطية ، كما كانت أبراج الأجراس الشامخة فى مدن العصور الوسطى ، بل كانت بمثابة الإعلان الضخم عن غنى ملوك العصر الهلنسى .

عجائب الدنيا السبع

لنقف هنا لحظة لنتأمل التعبير الذى بقيت آثاره فى كل آداب الغرب وهو قولنا : « عجائب الدنيا السبع » . من المحتمل أن يكون ذلك القول تعبيراً عن فكرة خيالية[٦٤] غير أنه ظهر للمرة الأولى فى زمن متأخر نسبيًّا ، وكان أول موضوع أدبى يظهر فى هذا الشأن مقالا باليونانية عنوانه « عن العجائب السبع » يعزى إلى فيلون البيزنطى . ولو تحقق لنا أن المؤلف هو فيلون الخبير اليونانى فى الآلات الذى عاش فى القرن الثالث أو الثانى ق.م. ، لاعتبرنا المقال قديماً ، غير أنه من المؤكد أن فيلون الذى كتب عن « العجائب السبع » لم يكن فى عنفوان شبابه قبل القرن الرابع — وربما الخامس — للميلاد[٦٥] .

وعلى أية حال ، فالمقال قصير وركيك ، ولا يحتوى على شىء سوى معلومات طفيفة ، لأنه كتب بصورة خطابية ولم يعتمد على الوصف ، ثم إن هذا المقال وصلنا ناقصاً ، فالجزء الأخير منه مفقود .[٦٦] والمؤلف يمتدح العجائب السبع بالترتيب التالى : ١ — الحدائق المعلقة فى بابل ٢ — الأهرام ٣ — تمثال زيوس الذى تحته فيدياس ٤ — تمثال رودس ٥ — أسوار بابل ٦ — معبد إفسوس ٧ — ضريح هاليكارناسوس (والجزء المفقود يتضمن خاتمة الكلام عن معبد إفسوس ، وضريح هاليكارناسوس) . ويدل هذا الترتيب على شىء من الغباوة ؛ فالهرم الكبير بناه خوفو (القرن ٢٩ ق . م .) ، والعجيبتان الأولى والخامسة ، وهما الحدائق المعلقة وأسوار بابل ، بناهما نبختنصر (٦٠٥—٥٦١) ، والعجيبة الثالثة وهى تمثال

زيوس ، نحته فيدياس (٤٩٠ — ٤٣٢) حوالى منتصف القرن الخامس ، ويحتمل أن يرجع تاريخ العجيبتين السادسة والسابعة إلى منتصف القرن الرابع ق . م . وأقول « يحتمل » لأن المؤلف لم يوضح فى وصفه للضريح ما إذا كان يشير إلى الضريح القديم الذى بنى فى المدة من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٤٢٥ وأحرقه إيروستراتوس سنة ٣٥٦ ق . م . ، أم أنه يشير إلى الضريح الجديد الذى بدأ بناؤه حوالى سنة ٣٥٠ ق . م . ثم أحرق على يد القوط سنة ٢٦٢ م . ثم إن الملك موسولوس توفى سنة ٣٥٣ ق . م . وشيدت زوجته أرتميزيا وهى أخته ، وخليفته ، ضريحه التذكارى عقب وفاته . والعجيبة الأخيرة التى تكلم فيلون عنها هى التمثال الضخم لإله الشمس ، ويبلغ طوله ٧٠ ذراعاً (=٤٢متراً) ، وهو من صنع خاريس اللندوسى (عاش حوالى سنة ٢٩٠ ق.م.)[٦٧] ، وهو التلميذ المفضل عند ليسيبوس . واستغرق تشييد هذا التمثال اثنى عشر عاماً وتكلف ثلاثمائة تالنت ، وكان يسمى « كولوسوس » ، وأقيم عند مدخل ميناء رودس. ولكن الرواية التى تقول إن رجلى التمثال منفرجتان ومثبتتان على جانبى بوغاز الميناء هى من الأساطير . وحوالى سنة ٢٢٤ ق . م . تهدم هذا التمثال بفعل زلزال ، وظلت أجزاؤه مبعثرة على سطح الأرض مدة تسعة قرون تقريباً ، أى حتى باعها أحد قادة الخليفة الأموى معاوية (٦٦١— ٦٨٠)إلى يهودى من حمص . واستخدم هذا اليهودى فى نقل هذه الأجزاء ٩٨٠ جملا سنة ٦٧٢ (ولهذه القصة روايات مختلفة وخاصة فى عدد الجمال الذى يتفاوت بين ٩٠٠ و ٠٠٠ر٣٠ !)[٦٨] .

وإذا نحن رجعنا إلى العجائب السبع وجدنا أن هذه التسمية التى انفردت بقداسة الرقم العددى سبعة وصلت إلينا عبر الأجيال المتتالية ولن تموت أبداً . وسوف توجد بيننا وأبداً سبع عجائب ، ماعدا قائمة هذه العجائب تختلف من حين إلى حين . ومن الغريب أن فيلون لم يذكر منارة فاروس ، ضمن قائمة العجائب السبع ، وهو لاشك مخطئ فى ذلك ، لأن المنارة كانت أعجب بناء من نوعه على الإطلاق حتى العصور الحديثة ، وانطوى تشييدها على حل

لكثير من المشكلات المعقدة فى البناء،[٦٩] ومع هذا فإن القائمة المتداولة فى معظم المؤلفات العلمية هى نفس قائمة فيلون، فيما عدا أن حدائق بابل وأسوارها تعد عجيبة واحدة ، ثم أضيفت منارة فاروس إلى القائمة .[٧٠] وهناك قوائم قديمة أخرى تتضمن تمثال الإلهة أثينا ، وهو التمثال الذى صنعه فيدياس ، كما تتضمن معبد أسكلبيوس فى إبيداوروس، ومعبد جوبتر أو الكابيتول فى روما ، ومعبد الإمبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٨) فى سيزيكوس وحتى معبد سليمان ببيت المقدس .

وصنع القدر المتقلب ما شاء أن يصنع بكل من تلك العجائب . غير أن العجيبة الوحيدة التى لاتزال قائمة حتى العصر الحاضر هى أعرقها فى القدم ، ونعنى بها الهرم الأكبر الذى يسبق العجيبة التى تليه فى القدم بألفين من السنين ، على حين لم يعمر آخر هذه العجائب ، وهى تمثال كلوسوس بجزيرة رودس سوى ستين عاماً .

ونختتم هنا الإشارة إلى أن دلائل النهضة السكندرية فى العصر البطلمى لم تقتصر على منارة فاروس ، بل تتعدى إلى المنشأتين البارزتين اللتين أسهمتا فى هذه النهضة، وهما الموسيون والمكتبة. وسواء أكانت المنشأتان متصلتين أم منفصلتين إحداهما عن الأخرى ، فذلك موضع بحث ، مع العلم بأنهما كانتا مؤسستين ملكيتين أقيمتا فى الحى الملكى من المدينة ، واعتمدتا اعتماداً كلياً على مشيئة الملك . أما استقلالهما أو ارتباط كل منها بالأخرى فهو مسألة إدارية لا يعنينا الكلام عنها هنا ..

وسوف تتناول بقية القسم الأول من هذا الكتاب موضوع الموسيون وأوجه النشاط العلمى التى نشأت فيه ، أو استمدت بعض العون أو الإلهام منه ؛ كما تتناول موضوع المكتبة والدراسات الإنسانية السكندرية التى تركزت فيها ، أو قامت المكتبة بدور الإلهام لأربابها .

تعليقات :

(١) انظر Pierre Jouguet, L'impérialisme macédonien et l'hellenisation de l'Orient, (Paris, 1926; English translation, London, 1928).

(٢) المقصود بذلك الإخاء بمعنى الكلمة ، مع قبول وجود الرق . وعلى أية حال ، لاينبغى أن نقسو فى الحكم على الإسكندر ، وذلك لأن هذا النظام الشائن كان موجوداً فى الولايات المتحدة فى القرن الماضى ، وكان لامناص من قيام الحرب الأهلية (١٨٦١ — ١٨٦٥) لإلغائه .

(٣) وقعت روكسانا أسيرة فى يد الإسكندر عندما استولى على قلعة فى بلاد الصغد شرقى نهر جيحون (أوكسوس) وبعد وفاته بوقت قصير ولدت روكسانا الطفل إسكندر الرابع ايجوس الذى نودى به شريكاً فى الحكم مدة قصيرة . وكانت روكسانا وابنها فى حماية أوليمبيادس والدة الإسكندر، غير أن كاسندروس قتلهما فى سنة ٣١١ ولم يكن الإسكندر الصغير يتجاوز الثانية عشرة من العمر .

(٤) استخدم المؤلف هنا لفظ ماجوس للدلالة على الحكماء ، وهو من الألفاظ التى تثير الاهتمام فى اللغة الإنجليزية ؛ فأصله إيرانى ولكنه استخدم فى اللغة اليونانية ، أولا بمعنى « قس من أتباع الزرادشتية » ، ثم بمعنى « حكيم » وخاصة « مفسر الأحلام » وقد شاع هذا اللفظ فى العالم المسيحى بعد استعمالها فى إنجيل متى : الإصحاح الثانى : الفقرة الأولى ، حيث سمى الملوك باسم المجوس يعنى الحكماء ، ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة ساحر وكلمة حكيم فى اللغة الإنجليزية .

(٥) انظر A.J. Festugiére, Grecs et sages orientaux, "Revue de l'histoire des religions" 130, 29 — 41 (1945) P. 32.

كان نخاو ملكاً على مصر من سنة ٦٠٩ إلى ٥٩٣ ، وكان دارا ملكاً على بلاد الفرس من ٥٢١ إلى ٤٨٥ ق . م . وللرحلتين البحريتين حول أفريقية ، انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (الطبعة الإنجليزية . الصفحات ١٨٣ و ١٩٩ و كذلك ص ٢٩٩ هامش ٣) حيث يجب أن تكون الإشارة إلى الملك نخاو بدلا من ساتاسبيز .

(٦) انظر: Jean Przyluski, "La théorie des éléments et les origines de la science", Scienta 54, 1—9 (1933) *Isis*, 21 434 (1934).

وانظر أيضا مقالة سابقة له بعنوان :

"L'influence iranienne en Grèce et dans l'Inde", Revue de l'Université de Bruxelles 37, 283 — 294 (1931—32) *Isis*, 22, 372 (1934—35).

(٧) لشرح موضوع التبادل فى الأفكار الدينية بين إيران وبلاد اليونان ، انظر :

Joseph Bidez and Franz Cumont, Les mages hellènisés.
Zoroastre, Ostanès et Hystaspe d'après la tradition grecque (2 vols.; Paris, 1938) Isis, 31, 458 — 462 (1939 — 40).

والمعروف أن زوروا ستريز (القرن السابق ق. م. ؟ (هوزاراثوسترا الذى ورد فى الزندأفشتا وكان اوستانيس وهيستاسبيس معلمين لهذه الديانة فيما بعد .

(٨) المجلد الأول الطبعة الإنجليزية ، ص ٢٦١ .

(٩) انظر التفاصيل فى المجلد الأول الطبعة الإنجليزية، ص ٣١١ و ٣٢٧ .

(١٠) المجلد الأول الطبعة الإنجليزية ، ص ٣٧٢ — ٣٧٣ ، ولمعنى التقارب ، انظر صفحات ١٧ — ١٨

Jean Filliozat, "L'Inde et échanges scientifiques dans l'humanité", Cahiers d'histoire mondiale 1, 353 — 367 (Paris, 1953)

(١١) انظر البحث المستفيض الذى يتضمنه كتاب :

W.W. Tarn : The Greeks in Bactria and India (ed. 2, 591 pp. 2. pls.,3 maps; Cambridge : University Press; 1951 ed. 1, 1938).

(١٢) انظر ملخص هذه الأسطورة الذى كتبه :

A.J. Festugière, "Trois rencontres entre la Grèce et l'Inde. 1. Le colloque d'Alexandre et des dix gymnos ophistes, Revue de l'histoire des religions 125, 33—40 (1942—43)

وكلمة جيمنوسفيستس تعنى الفيلسوف العارى التى أطلقها اليونانيون على حكماء الهنود .

(١٣) بنيت باتاليبوترا عند ملتقى نهر الكنج بنهر سون ، هى مدينة باتنا الحديثة ، عاصمة إقليم بيهار .

(١٤) كانت رفح سيناء فى طرف الجزء الجنوبى الغربى من فلسطين ، قرب غزة على مشارف الصحراء .

(١٥) انظر Tarn, The Greeks in Bactria and India (ed. 2), chap. 6, "Menander and his Kingdom", pp. 225 — 269.

اعتمدت فى وضع التواريخ على هذا الكتاب ، وفى أحد الملاحق بالكتاب (ص ٤١٤ —٤٣٦) يقارن المؤلف « أسئلة ميليندا بأسئلة بطلميوس الثانى » خطاب ارستياس المكذوب . وسنتناول بالكلام موضوع ميلندا بانها وارستياس فيما يلى .

(١٦) ليس هذا التاريخ مؤكداً ، فالبعض يحدده متأخراً حتى سنة ٥٠ م . ولكنى اتبعت هنا رستوفتزف فى مجلة ايزيس جزء ٣٤ : ص ١٧٣ (١٩٤٢ — ١٩٤٣) . وأطلق ميجاسثنيس (النصف الأول من القرن الثالث ق . م) على الرياح الموسمية اسم « الرياح الايتيزية » فى وصفه للهند . وفيما بعد سميت هذه الرياح باسم « هيبالوس » نسبة إلى مكتشفها . أما الاسم مونسون فيرجع إلى تاريخ متأخر وذلك لأن الاسم مشتق من العربية « موسم » . انظر :

Henry Yule and A.C. Burnell, Hobson — Jobson : A glossary of colloquial Anglo — Indian words and phrases, and of Kindred Terms, etymological, historical, geographical and discursive, ed. William Crook (London : Murray, 1903), p. 577.

(١٧) انظر : W.W. Tarn and G.Y. Criffith, Hellenistic civilisation (London : Arnold, ed. 3, 1952, p. 248.

غزا افونسو جراندى البوكرك (١٤٥٣—١٥١٥) جزءا من بلاد الهند فى سنة ١٥٠٤ ، وأعلن سلطان البرتغال عليها .

(١٨) يقع النص البالى الطويل فى ٤٢٠ صفحة فى طبعة ترنكنر، وينتهى الجزء القديم عند صفحة ٨٩ ، وهو لذلك لايعدو أكثر من خمس النص الكامل .

(١٩) انظر No. 1358 in the Catalogue of Bunyi Najio (Oxford, 1883; reprint, Tokyo, 1930).

ومن أجل التعريف بموضوع ترييتا كا ومن أجل الصينية انظر كتابى الذى عنوانه مقدمة تاريخ العلم ، الجزء الثالث ص ٤٦٦ — ٤٦٨ .

(٢٠) من الأمثلة على ذلك الكلمة ألاسندا ، فى الكتاب الثالث ، وهى فى الغالب تحريف لكلمة الإسكندرية .

(٢١) انظر وصف هذه الألواح المسمارية فى Otto Neugebauer, The exact sciences in Antiquity (Acta Historica scientiarum naturalium et medicinalium, edidit Bibliotheca Universitatis Hauniensis, vol. IX; Copenhagen : Munksgaard, 1951; Princeton: Princeton University Press, 1952). Isis 43, 69 — 73 (1952) and Chapter XIX, below.

ومن هذا الكتاب طبعة ثانية فى مطبوعات جامعة براون سنة ١٩٥٧ .

(٢٢) هذا الرأى معقول إذا افترضنا أن هيرون لا ينتمى إلى عصر ماقبل المسيحية ، كما اعتقدت سابقاً ، وأنه لم يعش فى النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنه عاش فى النصف الثانى من القرن الأول . ويحتمل أنه ازدهر بعد سنة ٦٢ وقبل سنة ١٥٠ انظر : Isis 32, 263 (1947 — 49) 39, 243 (1948).

(٢٣) لم تكن هذه الهجرة قليلة لا فى الأعداد المطلقة فحسب ولكن بالنسبة إلى السكان الآسيويين جميعا .

(٢٤) انظر : Tarn, Hellenistic Civilisation, p. 163.

(٢٥) يلاحظ أن بطلميوس الفلكى لم يكن من هذه الأسرة ، وهو الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى . وبطلميوس الفلكى هذا رجل عظيم حتى إنه يستحق اسماً عالميا ، على حين أن اسم أسرة ملوك لاجوس (البطلمية) لايعنى سوى مصر والشرق الأدنى وحدهما .

(٢٦) كانت أرسنوى أم بطلميوس محظية فيليب المقدونى .

(٢٧) يعرف كل إنسان كليوبا ترا ولايعرف غيرها ، ويرفض عالم إنجليزى هو شيروود تايلور F. Sherwood Taylor, in The Alchemists (New York : Schuman, 1949), P.26 أن ينسب نصوصاً يونانية عن الكيميا القديمة إلى كليوباترا لأنها ملكة مصرية غير أن هذا الاسم كان شائعاً فى العالم اليونانى ، ومع التجاوز عن المشابهة كانت الكثيرات من النساء فى مصر البطلمية يسمين كليوباترا ، كما كان اسم فيكتوريا فى إنجلترا شائعاً فى عصر الملكة فيكتوريا . ويوجد ثلاث وثلاثون من النساء باسم كليوباترا ، وهن ذوات شهرة كافية فى تقدير دائرة المعارف الألمانية Pauly - Wissowa, Vol. 21 (1921), 732 - 789. وكليوباترا موضوع دراستنا وأشهرهن جميعاً ، هى كليوباترا السابعة ، ابنة بطلميوس الثانى عشر أوليتيس التى ولدت سنة ٦٩ وانتحرت سنة ٣٠ . وعندما يكتب الباحث لفظ « كليوباترا » بلا تعيين، فتكون هى المقصودة . اقرأ ماكتبه بلوتارخ عنها فى تاريخ حياة أنطونيوس .

(٢٨) انظر : Tarn and Griffith, Hellenistic Civilisation, pp. 46, 56.
وكان هانيبال بن هاملكار باركا أعظم قائد قرطاجى (٢٤٧ – ١٨٣) .

(٢٩) ماتت كليوباترا نقلا عن المصادر الشائعة من لدغة ثعبان ثبتته على ثديها . وكان هذا موتاً رمزيا ، فالحية الملكية يورايوس مع قرص الشمس ، كانت رمزا للإله رع (إله الشمس). وهذا الرمز ظهر أيضاً فى تيجان الملوك المصريين فوق الجبهة . ويلاحظ أن آخر ملك من ملوك مصر القديمة مات بلدغة الحية المقدسة .

(٣٠) انظر : J.H Breasted in his History of Egypt: New York : Scribner, 1942, p. 579.,

حيث يقارن هذه الجاليات اليونانية بالجاليات الأوربية فى الصين فيقول مانصه : « لوكانت الأمور بيد المصرى لنفى الأجانب جميعاً من سواحله، ولكنه إزاء تلك الظروف ، وهى تشبه ظروف الصينى فى العصر الحديث ، تاجر معهم ولم يعارض وجودهم فى دياره ، نظراً للمغنم الذى يعود عليه منهم .

(٣١) ربما يدهش بعض القراء أن أدرجنا هنا أعمال المصارف المالية (البنوك) ؛ لأن هذا البعض لايدرك أن نظام المصارف المالية يرجع إلى العصور القديمة ،فكان فى الإمبراطوريات الشرقية وخاصة فى الإمبراطورية الفارسية رجال مصارف مالية ، ولنذكر هنا أن مصر كانت ولاية فارسية من ٥٢٥ — ٣٣٢ ق. م. وأن فاتحيها من اليونانيين جاءوا إليها لإصلاح النظم الفارسية أو إلغائها ،ومن ثم ورث البطالمة النظم الماليةمن الحانيين اليونانى والفارسى . انظر رسالة الدكتوراه التى كتبها غليوم كارداشيا فى باريس وموضوعها :

Les archives de Murashû. Une famille d'hommes d'affaires à l'époque Perse, 554 — 403 (Paris : Imprimerie nationale, 1951).

وهى رسالة ألقت ضوءاً هاما على أعمال المصارف المالية الفارسية فى العصور القديمة . وكان المصرف المواشى فى مدينة نيبور من أقدم البيوت المالية فى العالم . انظر بضع مذكرات عن البنوك فى

Tarn and Griffith, Hellenistic Civilisation, pp. 115-116, 250.

(٣٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (الطبعة الإنجليزية ، ص ٥١) عن استخدام الإبل فى مصر .

(٣٣) دراسة الزراعة والتجارة والصناعة فى مصر البطلمية موضوع ضخم عالجه المرحوم ميخائيل أفانوفتش رستوفتزف (١٨٧٠ — ١٩٥٢) معالجة وافية فى كتابه :

The Social and Economic History of the Hellenistic World (3 vols. 1804, pp. 112 pls.; Oxford : Clarendon Press, 1941) Isis 34, 173-174 (1942-43).

وعالج روبرت بير بونت بليك موضوع التعدين فى ملحق فى هذا الكتاب .

(٣٤) جعلت الإدارة فى مصر قيام الثورات من الأمور العسيرة العديمة الجدوى ، إذ كانت الحكومة تسيطر على كل شىء تمام السيطرة ، غير أن الحكومة نفسها أخذت فى الضعف منذ عهد بطلميوس الرابع فيلوپاتر (٢٢٢ — ٢٠٥) فصاعدا ومن سنة ٢١٧ إلى سنة ٨٥ ق . م . ازدادت الثورات سواء فى العدد أو القوة أو العنف .

(٣٥) اشتملت الطبقة العليا على بعض المصريين وخاصة كبار الكهنة .

(٣٦) تقع هذه الواحة فى أقصى غرب الواحات المصرية ، على مسافة أربعمائة ميل تقريباً جنوب غربى الإسكندرية . والسفر إليها بالسيارة الحديثة رحلة شاقة ، ولايسع الباحث إلا أن يعجب بالإسكندر لقطعه المسافة إليها بالطريقة القديمة أشد مشقة . وكان معبد آمون معروفاً لدى اليونانيين فى القرن السابع ق . م . ، وكان لنبوءة الكاهن الأكبر من المكانة والسلطان مايكاد يضاهى كاهن معبد دودونا ودلفى . وأدرك الإسكندر الأهمية السياسية لاستشارة الكاهن الأكبر . انظر عن سيوه C. Dalrymple Belgrave, *Siwa, the oasis of Jupiter Ammon* (London, 1923).

ولم يتبق من هذا المعبد سوى بقايا أثرية قليلة ، ولهذه البقايا صور فوتوغرافية جيدة فى :

Robin Maugham, *Journey to Siwa* (London : Chapman and Hall, 1950), pls. 13, 15, 21, 25.

ويقال إن أول طريقة للحصول على النشادر (chloride or hydrochloride of ammonium) كانت بتقطير روث الجمال بالقرب من ذلك المعبد . ونحن لانبعد عن الصواب إذا تكلمنا عن الأمونيات المتحجرة ، فاسمها بلاشك مشتق من معبد آمون ؛ لأنها تشبه قرن الكبش ؛ إذ كان الكبش هو الحيوان المقدس لإله الشمس آمون رع ، وكان زيوس آمون صورته اليونانية .

(٣٧) هنا يأتى السؤال : « هل اعترفت نبوءة الكاهن الأكبر بمعبد آمون بشخصية الإسكندر ؟ ذلك أمر موضع شك ، أو هو أمر يتوقف بالأحرى على تفسير أفراد حاشية الإسكندر . وربما رحب الكاهن الأكبر بالإسكندر بالكلمات : « يابنى » أو « ياابن زيوس » ومن السهل الخلط بين هاتين التحيتين وربما كانت التحية الثانية تقليدية ، أو يكون المقصود بها مدلولها الحرفى .

(٣٨) اتحد العجل الميت أبيس مع الإله أوزيريس ، وصار معبوداً باعتباره أحد آلهة العالم الأسفل ، وبذلك يطابق أوزرابيس أو يقابل هاديس أو بلوتون عند اليونان .

(٣٩) الاسم (سارابيس) مشتق من الكلمتين أوزيريس وأبيس أو أوزرابيس . ويلاحظ أن سارابيس وسارابيون اسمان يونانيان . أما سيرابيس وسيرابيوم فهما صيغتان لاتينيتان .

(٤٠) كان كل من مانيتون وتيموثيوس مستشاراً لبطلميوس سوتير . ويسمى بلوتارخوس المستشار تيموثيوس باسم المفسر ، لأنه كان يقوم بتفسير الطقوس الإليوسية الغامضة . وتخبرنا الأساطير القديمة أن البطل إيومولبوس هو مؤسس تلك الطقوس الغامضة ، وكان أول كاهن للإلهة ديميتير . والمفروض أن الكهنة الذين خلفوا إيمولبوس من سلالته ويطلق عليهم اسم إيمولبيده ، وكان تيموثيوس أحدهم .

انظر : Pauly-Wissowa, series 2, Vol. 12 (1937), 1341.

(٤١) أطلقت عليه هذه التسمية على هذا الأثر القديم بسبب القصة التى شاعت فى العصور الوسطى أن هذا العمود نصب على مقبرة بومبى العظيم ، وهو القائد الرومانى (١٠٦ — ٤٨ ق . م) الذى قتل حيث كان ينزل إلى الشاطئ المصرى ، ويسمى العرب « عمود بومبى » باسم العمود من غير أية نسبة لشخص ما .

(٤٢) كان ثيوفيلوس أسقفاً للإسكندرية من ٣٨٥ إلى ٤١٢ ، وقيل إنه حصل من الإمبراطور ثيودوسيوس على تفويض يخول له تدمير معابد الإسكندرية الوثنية ، لامعبد السرابيون فقط ، بل معبد ميثرا أيضاً فضلا عن معابد أخرى . وليس من المحقق أن الإمبراطور منح الأسقف ثيوفيلوس هذه السلطة ، ولكن ثيوفيلوس كان طاغية متعصبا إلى حد الانحراف عن الصواب .

(٤٣) نهر جيلوم هو نهر هيداسبيس القديم ، أى إنه أحد أنهار البنجاب الخمسة ، و بوسيفالوس كان اسم جواد الإسكندر . انظر المجلد الأول من هذا الكتاب .

(٤٤) جاكسارتيس (أو سور داريا) اسم النهر الشرقى من النهرين اللذين يصبان فى بحر آرال والنهر الآخر اسمه أوكسوس ، أما بلاد الصغد فهى المنطقة الواقعة مابين النهرين .

(٤٥) تعنى كلمة سيما فى اللغة العربية لفظ « علامة » أو « نذير » وأصبح معناها فيما بعد « شاهد قبر » . واللفظ الذى يستعمل كثيراً اليوم مشتق من نفس الأصل . و كانت تعنى أحياناً « الجسم » . وربما عثر على مكان مقبرة الإسكندرية بالقرب من جامع النبى دانيال وربما أدت الحفائر فى تلك المنطقة إلى ازدياد معلوماتنا . وتقوم فى العصر الحاضر بعثة بولندية برئاسة الأستاذ ميخالوفسكى بالحفر فى هذه المنطقة .

(٤٦) يضاف إلى هؤلاء وأولئك فئة كبار الكهنة المصريين الذين سيطروا على نفوس الناس ، وتعاونوا مع الحكام ذوى الشأن .

(٤٧) لم يستخدم اليونان لفظ كوزموبوليس فى هذا المعنى ، ولكن الفيلسوف الكلبى ديوجنيس سينوبى ، كان أول من استعمل هذا اللفظ . إذ عندما سئل من أى بلد جاء ، أجاب : « إننى مواطن عالمى » وربما تركت هذه الرواية أثرها فى الإسكندر لو كان سمعها ، غير أنه على فرض أن ديوجنيس أول من ابتدع هذه الفكرة ، لم يكن فى استطاعته الإعلان عنها وفرضها كما فعل الإسكندر . انظر : Diogenes Laêrtios; VI; 63. Volume I, p. 489.

(٤٨) انظر : Volume I, pp. 295, 570.

(٤٩) كان بناء معبد إفسوس القديم فى القرن السادس قبل الميلاد ، ثم أحرقه بالنيران هيروستراتوس الإفسوسى الذى أراد « أن يخلد نفسه » ، ونجح فى مقصده . وطبقا للأسطورة ، اشتعلت هذه النيران فى نفس الليلة التى ولد فيها الإسكندر سنة ٣٥٦ .

(٥٠) لم يبدأ تحقيق هذه الفكرة الشامخة حتى وقتذاك . غير أنه يحتمل أن يكون ديوكراتيس بسبب هذه الفكرة رائداقبل المثال الدانيمركى برتل ثورفالدسن (١٧٦٨ - ١٨٤٤) الذى وضع تصميم التمثال العظيم لأسد لوسرن تخليداً لذكرى الحراس السويسريين الذين قتلوا سنة ١٧٩٢ ، كما يعتبر ديوكراتيس رائداً أيضاً قبل المثال الأمريكى جوتسون بورجلم (١٨٧١ - ١٩٤١) ، الذى نحت صوراً لأوجه الرؤساء الأمريكيين فى صخور جبل راشمور فى تلال بلاك هيلز بولاية داكوتا بالولايات المتحدة .

(٥١) انظر : Pliny, Natural History, XXXIV, 42 or 147.

(٥٢) لمعرفة التفاصيل عن مدينة الإسكندرية فى العصور القديمة انظر :

E. Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum* (Bergamo, 1914), the excellent Baedeker (ed. in English; Leipzig, 1929), and Edward Alexander Parsons, *The Alexandrian Library* Amsterdam : Elsevier 1952) *Isis* 43, 286 (1952), including many maps.

(٥٣) تقع راقودة تجاه جزيرة فاروس ، وربما يكون كليومينيس النوقراطى الذى كان عامل الإسكندر فى مصر هو الذى اختار هذه البقعة . وكليومنيس هذا كان ماليا ماهراً ، ولكن ابتزازه للأموال زاد عن الحد حتى إنه أعدم بأمر من بطلميوس سوتير .

(٥٤) يصل الفرع الكانوبى إلى البحر المتوسط عند أبى قير شرق الإسكندرية ، وهناك فروع أخرى عند رشيد وإلى الشرق منها . وكانت نوقراطيس تقع على الفرع الكانوبى ، ولكنها تبعد مسافة ما عن شاطئ البحر .

(٥٥) بلغ طول الجسر ٦٠٠ ذراع (= ٣٦٠ مترا) ، وعرضه ٢٠ ذراعا (= ١٢ مترا) ، ويعلو ثلاثة أذرع (= ١,٨٠ من الأمتار) عن سطح البحر ، ويغطيه ماء البحر قليلا عند المد حتى يصل إلى مفصل القدم . ولما كانت الجزيرة تعلو عن الشاطئ ، وصلت بينهما قنطرة منحدرة تتكون من ست عشرة فتحة يتناقص ارتفاعها كلما اقتربت من الجسر .

(٥٦) ترك المؤرخ سترابون وصفا مفصلا للميناءين فى جغرافيته : Geography, XVII, I, 6-8 ولاحظ سترابون خلو الإسكندرية من الأمراض .

(٥٧) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ، عن الملاريا فى بلاد اليونان القديمة .

(٥٨) أضفى اليونانيون على كلمة « فاروس » معنى المنارة ، واستخدموها للدلالة على أية منارة . ثم انتقلت الكلمة إلى كثير من اللغات الرومانسية ، أى الفرنسية ، والإيطالية والإسبانية وهكذا . حيث اشتق اللفظ الدال على المنارة من كلمة فاروس . وتستعمل الكلمة فاروس أيضاً فى الإنجليزية للدلالة على نور يشبه النور المنبعث من المنارة مثل فانوس المركب ، ونحن نشيد بفضل منارة الإسكندرية كلما استخدمنا لفظاً من هذه الألفاظ المشتقة من كلمة فاروس .

(٥٩) طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٨٧٠ ، ويقع وصف المالقى فى الجزء الثانى ص ٥٣٧ — ٥٣٨ ، واكتشف ميجويل آسين بلاسيوس أهمية هذا الكتاب وترجمه وتناوله بالبحث فى مجلة *Andalus* 1, 241-300 (1930). وأتم شرح آسين لهذا الكتاب من الناحية التكنولوجية المهندس المعمارى مودستولوبيزأوتيرو . انظر أيضاً مجلة *Andalus* 3, 185-193 (1935). وأعظم البحوث قيمة فى موضوع منارة الإسكندرية كتاب ألفه هيرمان ثيرش (١٨٧٤ — ١٩٣٩) وعنوانه *Pharos* (266 pp. 10 pls., 455 ills.; Leipzig, 1909) ولايزال هذا الكتاب عظيم القيمة ،

ولكن النتائج التى توصل إليها تيرش ينبغى أن تتعدل فى ضوء اكتشاف آمين .. وشرح هذا الاكتشاف فى إنجلترا المرحوم دوق ألبا وبيرويك مرة فى مجلة Proceedings of the British Academy المجلد ١٩ ، ص ٣ — ١٨ لندن ١٩٢٣ ، ومرة أخرى فى :

Illustrated London News, 27. January 1934.

(٦٠) نستطيع أن نفترض أن الذراع تساوى حوالى ٦٠ سم أو ١/٢ ٢٣ بوصة ، والخطوة تساوى نحو ٧٠سم أو ١/٢ ٢٧ بوصة .

(٦١) استخدمت هذه الطريقة المعمارية فى برج كتدرائية أشبيلية وبرج كوبنهاجن المستدير .

(٦٢) كان البخور مستعملا بكميات كبيرة فى كثير من معابد الآلهة ، انظر :

Tarn, *Hellenistic Civilisation*, p. 260.

(٦٣) يوجد كثير من التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع فى كتاب :

Bernard Pyne Grenfell, Revenue laws of Ptolemy Philadelphus (388 pp., 13 pls.; Oxford, 1896).

ويوجد ملخص من هذا الكتاب عن احتكار الزيت فى كتاب :

G.W. Botsford and E.G. Sihler, *Hellenistic Civilisation* (New York, 1915), pp. 607-609.

وكان الزيت أكبر الاحتكارات الملكية وأحسنها ، ولكن كانت هناك احتكارات أخرى كثيرة مثل احتكار المنسوجات وورق البردى .

(٦٤) ذكر سترابون فى جغرافيته *Geography*, XVII, 1, 33 أن الأهرام كانت ضمن العجائب السبع ، ومعنى ذلك أن العجائب وضعت فى ذلك الترتيب قبل عصره .

(٦٥) أوردت فى الجزء الأول من كتابى الذى عنوانه مقدمة فى تاريخ العلم أن تاريخ فيلون الخبير فى الآلات هو النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد . وفى مقال W. Kroll بشأن فيلون فى دائرة المعارف الألمانية (Pauly-Wissowa, Vol. 39 (1941), 53-55).

وضع فيلون فى أواخر القرن الثالث ق . م. ، والمعروف أن فيلون الآخر صاحب مقال العجائب السبع يرجع إلى القرن الرابع أو الخامس بعد الميلاد .

(٦٦) First edition by Leo Allatius (Rome, 1640); second by Io.C. Orelli. (Leipzig, 1816).. The best is the one by Rudolf Hercher at the end of his edition of Ailianos(III - 1) (Paris, 1858), Vol. 2, pp. 101-105.

والطبعات الثلاث باللغتين اليونانية واللاتينية .

(٦٧) كانت مدينة ليندوس إحدى المدن الثلاث القديمة فى جزيرة رودس ، ولذا كانت مدينة رودس التى تأسست عام ٤٠٨ ق. م. حديثة نسبيا . وكان هليوس ، إله الشمس راعى هذه الجزيرة ، ولم يكن خاريس الفنان الرودسى الوحيد ، لأن جزيرة رودس اشتهرت بأنها كانت مركزاً فنيا وتجارياً منذ عصور ماقبل التاريخ ، وتوجد القطع الفنية من التماثيل المصنوعة فى رودس فى العصر الهلنستى فى كثير من البلاد ، ومثال ذلك « اللاأوكون » و « البيجا » وهى (عربة يجرها جوادان منطلقان) وهما موجودان فى الفاتيكان ، ومن هذه القطع الفنية كذلك تمثال الكوادريجا للإله هليوس الموجود فى ميدان سان ماركو بمدينة البندقية ، ثم تمثال الثور المتوحش الذى عثر عليه الباحثون فى قصر أسرة فارنيزى. وهذا التمثال موجود الآن فى متحف نابولى ، وهكذا . انظر : Skevos Zervos, *Rhodes, capitale du Dodécanèse* (folio, 378 pp., 687 ills.; Paris, 1920). وهذا الكتاب موضح بالصور توضيحاً رائعاً .

(٦٨) أفضل المصادر فى هذا الموضوع هو : *Chronographia* of Theophanes Homologetes (IX — 1), Carolus de Boor's edition (Leipzig 1883), Vol. 1, p. 345.

ويقول ثيوفانيس إن هذه البقايا كانت من البرونز ، ولكن من العسير أن يصدق الباحث أن مثل هذه الكتل الضخمة من هذا المعدن أغفلت مدة تسعة قرون .

(٦٩) كانت منارة الإسكندرية أول برج عال بالمعنى المفهوم تمييزاً لها من الأهرام والملويات البابلية المعروفة باسم الزيجورات ziggurat .

(٧٠) لست أعرف اسم أول من أدمج فاروس فى القائمة التى يحتمل أن تكون أقدم من قائمة فيلون . على أن القائمة التى اشتملت على فاروس برهنت على قدرتها على البقاء بدليل أن فيكتور هوجو رجع إليها فى كتابه الذى عنوانه : Légende des siècles (1877-1883) .